الأيادي البيضاء

رواية

عبد الباسط البطل

الكتاب: الأيادي البيضاء (رواية)

الكاتب: عبد الباسط البطل

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

البطل ، عبد الباسط

الأيادي البيضاء (رواية)/ عبد الباسط البطل

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٨٢ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ١ – ١٨ – ٦٨٢٣ ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٩٤٩٠ / ٢٠٢٠

الأيادي البيضاء

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

إهـــداء

الأديب والروائي الكبير علي ماهر عيد

وصديقي الصدوق، والمبدع الخلوق عبد الرحمن بكر

وإلى روح صديقي كاتب الأطفال الخلوق صبحي سليمان

حبيس المطر

مازالت الشمس حبيسة غيوم كثيفة. ومازالت السماء في زمجرتها منذ البارحة.. ترسل أمطارها بغزارة. أوشك المغرب على المجيء.

وائل ابن الثالثة عشرة، في ملابس الخروج منذ الظهر، ينتظر اللحظة التي ينطلق فيها خارج البيت، إلى متجر المفروشات، الذي ورثه عن والده، وتشرف عليه والدته.

بين الحين والآخر، يقوم من مقعده، يفتح النافذة، يمد ذراعه اليمنى في الهواء، من خلال سياج حديدي، يتلقى على كفه قطرات المطر. ثم ينطلق في ضحكات عالية.

تأتي والدته مسرعة، تسحبه إلى مقعده، وتغلق النافذة.

"متى نخرج يا أماه؟"

سؤال لا يمل من تكراره، رغم صعوبة حروفه على لسانه.

تنهدت والدته، وقالت:

- حينما تتوقف الأمطار.
- أحب المطر وهو ينزل فوق رأسي.

ابتسامة مريرة ترتسم على شفتي والدته، تمسح آثار اللعاب حول فمه، ثم تذهب في صمت.

لا يعجبه صمتها.. يسألها:

- متى تتوقف الأمطار؟
- الله أعلم يا حبيبي.

أدرك عدم جدوى الأسئلة، عاد إلى السكون على مقعده، يتابع إلى المطر وهو يجري على زجاج النافذة، ينقبض قلبه كلما دخل الظلام، فهذا يعني مواصلة المكوث في البيت إلى

اليوم التالي، دون أن يذهب إلى المحل التجاري، ويجلس على مقعد بجوار الباب، يستمتع برؤية المارة في رواحهم ومجيئهم، ومداعبة العمال والزبائن له.

تنهيدة دفينة خرجت من أعماقها، وهي تتأمله في قلق.

قالت تخاطبه بهمس غير مسموع. "لماذا تريد الخروج يا وائل؟.. خارج البيت ذئاب، لا يقلون طمعا وشراسة عن عمك "عطية"، هناك يهلك فيهم الضعيف، حتى يعيش القوي".

أغمضت عينيها، وخرجت منها تنهيدة أشد حرارة عن سابقتها، وعادت قائلة:

"وأنت يا ولدي لا سند لك من عائلتك، سوف تكون مطمعا لهذا العالم؛ فسامحني يا ولدي.. سجن البيت أفضل من عالم مستأسد على الضعفاء".

وبعد قليل.. أرسلت نظرة عبر زجاج النافذة، رأت السماء مازالت ملبدة بالغيوم، هزت رأسها في أسف، لأنها لم تستطع الخروج بولدها هذه الليلة.

اتجهت إلى التليفون في ركن الصالة، أدارت القرص، ثم قالت:

- أستاذ نوفل.. لم نستطع المجيء هذه الليلة، تأكد من إغلاق المحل جيداً، وبلّغ عم عبده السائق بذلك.

ثم استدارت إلى وائل.. استسلم لها وهي تنزع عنه ملابسه، لكن رنين التليفون أوقف يدها.

رفعت السماعة في وجل. فإذا بصوت والدة زوجها تقول لها:

- عبير.. تعالي حالا.
- كيف.. المطر شديد جدا.. ولن أستطيع الخروج أنا وولدي.
- قلت لك تعالي حالا.

أُغلق الاتصال.

نظرت عبير إلى صورة زوجها المعلقة في صدر البهو، تعاتبه لأنه اغتصب منها

وعدا قبل وفاته، بأن لا تغضب والدته، وأن تزورها وتبرها، حتى يكون راضيا عنها وهو في قبره. ولولا هذا الوعد، ما خرجت في هذا الجو القارس.

عادت إلى ولدها، وأعادت تهيئته للخروج، فقال وائل:

- هل سنخرج يا أمي؟

- نعم.

لمعت الفرحة في عينيه، هزت أعماقه. الآن.. سينطلق.. سوف يستمتع بالمطر وهو ينزل على شعره الناعم.. يفتح كفه.. يحاول أن يمسك حبات المطر، تهرب منه.. ويعيد هو المحاولة. لكنها سرعان ما انطفأت، حين قالت له:

- سنذهب إلى جدتك.

قال مزمجرا:

- لا أحب الذهاب إلى هناك.

- لماذا يا حبيبي؟

- هناك حسام ابن عمي.. يضربني كلما رآني.

أغمضت عبير عينيها، تكتم حسرة في قلبها، لانكسار ولدها وسط أهل زوجها. ثم حاولت الابتسام، وقالت:

- لا يا حبيبي.. هو يحاول اللعب معك.

- لا يا أمي.. هو دائما يسخر مني، ويقول لي يا أعرج.

لم تستطع عبير أن تحبس دموعها، فأطلقتها وهي تبتعد عنه، حتى لا يراها وهي تبكي حزنا على عجزه عن مسايرة الأطفال في اللعب، حيث أنه يعاني من عرج في خطواته، حيث أن ساقه اليمنى أطول قليلا من الأخرى، وضعف عدد من أصابع كفه اليسرى، ولذلك تجدها معقوفة أمامه أكثر الوقت. هذبت من شكلها أمام المرأة، ومسحت دموعها، ثم قالت ضاحكة:

- هيا يا حبيبي.. نرى ماذا تريد جدتك في هذه الساعة الممطرة؟.

رغم أنه كان يتوق إلى الخروج من المنزل، إلا أن خطواته إلى بيت جدته ثقيلة جدا. الطريق كثير الوحل، يتشبث بذراع والدته، التي لا تمل من التحذير في كل خطوة.

لم يفرح وائل بقطرات المطر، وهي تنزل على رأسه كما كان يقول، ولم يسمع الكثير من تحذيراتها. فقد كان يفكر: "ماذا يعد له "حسام" ابن عمه هذه المرة.. هل سيسخر منه كعادته.. أم يطلب منه أن يفرد ذراعه المعقوف أمامه.. أم يرغمه على الركض معه في صالة المنزل الواسعة؟"

وقبل خطوات من منزل جدته، تزحلقت رجله اليمنى، فوقع على الأرض. ساعدته والدته على الوقوف، فنظر إلى ملابسه، رآها تلطخت بالطين.. قال:

- تعالي نعود يا أمي.

تنهدت، وقالت في نبرة بين اليأس والرجاء:

بعد أن اقتربنا من المنزل يا وائل.. تريد أن نعود دون أن نعرف ماذا تريد جدتك!

- ملابسي تلطخت بالطين.

- لا عليك.. سوف أغيرها لك عندما نعود.

- لا أحب أن يراني حسام هكذا.

- لا تخف من شيء.. تعال يا ولدي.

سار معها بخطوات أثقل، حتى دخلا المنزل.

في غرفة النوم، كانت الجدة جالسة على الفراش، بجوار "ثريا" أم حسام (زوجة عمه)، تحت عدد من البطاطين، يتدفئون من البرد القارس، وحسام يتمدد بينهما.

وقفت عبير أمامهم.. وائل يلتصق بها، يحاول أن يخفي الطين المتعلق بملابسه.

وقبل أن تسألها ماذا تريد؟.. قفز حسام من بين جدته ووالدته. جذب وائل من ملابسه، يريد أن يشاركه العدو في الصالة. وائل يزداد التصاقاً بوالدته.علت جدته

بصوتها الجهوري:

- تحرك يا ولد.. اذهب والعب معه يا طوبة.

فقد اعتادت جدته أن تنعته بهذه الكلمة، ولم تهتم بما تفعله الكلمة من حزن في نفس عبير.

لم يتحرك وائل؛ فقالت جدته مرة أخرى:

- إلى متى ستظل أبكم وغبيا؟!.

ينطلق حسام في ضحكات متتالية، وهو يشير إلى الطين على ملابس وائل. نظر وائل إلى والدته، يعاتبها لأنها أصرت على الحضور إلى هنا، فضمته تحت إبطها أكثر، وسألت جدته وسط قهقهات حسام:

- نعم.. ما هو الأمر المهم الذي تريدينني لأجله؟

- لماذا العجلة؟.. استريحي أولا.

- نريد الانصراف.

نظرت إليها العجوز بقوة، وسألتها:

- لماذا ترفضين الزواج من أبي حسام؟

- سبق وقلت لك.. أنا لا أريد الزواج مرة أخرى.

- لماذا.. وأنت في حاجة إلى من يحميك أنت وولدك؟

- الحامي هو الله.

صرخت والدة زوجها وقالت مزمجرة:

- ماذا تظنين نفسك.. أنت لست أجمل من زوجته "ثريا"، ولا أفضل منها في شيء.

جاءت "ثريا" بابتسامة فرحة خبيثة، وهي مازالت جالسة تحت البطاطين. أجابت عبير:

- هي أحسن مني.. وأنا لا أريد الزواج.. يكفيني العيش مع ولدي.

قالت والدة زوجها في استهجان وهي تشير إلى وائل:

- وهل يحميك هذا الأهطل؟

اختنقت عبير بانفعالات كثيرة، ظهرت على وجهها، ثم قالت بهدوء يكظم حزنا:

- هل تريدين شيئا آخر؟

جاء صوت "عطية" والد حسام من خلفها، وهو يقول من خلال ابتسامة باهتة ووجه كالح:

- عليك أن تفكري، وإلا سوف تتعبي.

التفتت إليه، وقالت بصوت مخنوق:

- فكرت.. ولن أتعب يا أخا زوجي.

مازال حسام يشد وائل من ملابسه، يريد أن يبعده عن والدته، حتى يريهم الطين الذي التصق بظهره.. تضايق وائل.. اشتد غيظه، دفعه عنه بذراعه، فوقع حسام على الأرض.

صرخت أم حسام، وقامت من مكانها تنهر وائل، وكذلك نهرته جدته، فضمته والدته عبير، وهي تقول:

- مهلا.. لماذا لم تمنعوا حسام من مضايقته منذ أن أتينا؟.

فقالت جدته:

- حسام أصغر من وائل، والكبير عليه أن يتحمل الصغير.

- وهل وائل يدرك ما يفعل؟

- نعرف أنه أهطل.. ويجب عليك أن تعلميه

سكتت عبير، ثم انسحبت من وقفتها، راحت تجر ولدها وألمها وحزنها وضعفها من أمام عائلة زوجها، يزفهما حسام بضحكاته الساخرة، وكذلك أمه، تتمتم بكلمات غير مفهومة، سخطاً على وائل.

كانت خطوات العودة سريعة، انطلقا في الوحل، يزفران بحرقة، كأنهما يطردان دخان خانق في صدريهما، يملأهما الحزن من هذا اللقاء الذي يزيد من كراهيتهما لهذا المنزل ومن فيه.

يردد وائل كلمات مبهمة، أدركت والدته أنه يعاتبها لأنها أجبرته على المجيء. وقلبها ينفطر حزناً عليه، ويسخط من عائلته.

وعندما دخلا المنزل، جلست عبير على مقعد في البهو، ثم أجهشت بالبكاء، أطلقت دموعها الحبيسة، تنعي ضعفها أمام جبروت عائلة زوجها، ووحدتها مع ولدها المعاق.

لم يعرف وائل ماذا يقول، ولكنه يعرف كيف يربت على كتف والدته ورأسها، فاحتضنته، كأنها تتأسف له، لأنها أصرت على الذهاب إلى جدته. ثم قالت كأنها تلتمس الأعذار لنفسها:

"لولا أن والدك انتزع مني وعدا ببر جدتك.. ما ذهبت إليها أبداً".

لم يعلق وائل بشيء، لأنه لم يفهم معنى كلماتها، فاحتضنته، ومسحت دموعها.

بعد قليل.. هدأت من بكائها، ثم أرادت أن تفعل شيئا تروح به عن نفس ولدها، وتذهب عنه بعض من كدره، فقالت:

- سوف أعد لك طبقا من "البليلة" بالمكسرات التي تحبها.

لم يعلق وائل بكلمة أو بإشارة، يبدو أنه زهد في كل شيء يحبه. اتجه إلى فراشه، هرباً من أشياء كامنة في نفسه، لم يعرف كيف يخرجها، أو كيف يعبر عنها.

أما هي.. ألقت جسدها على مقعد بجوار الفراش، خلف النافذة المطلة على الشارع الطويل، الذي يشق مدينة طنطا، ويربط شمالها بجنوبها. تسلط نظراتها إلى مطبات في الطريق أمامها، ترتفع العربات وتنحني، كلما مرت عليها. يسيطر عليها سؤال كل ليلة. ماذا تفعل مع عائلة زوجها المتجبرة، وهي بضعفها وقلة حيلتها؟.. إنهم يريدون أن يزوجوها عطية شقيق زوجها، رغم أنه متزوج، وله ولد أصغر من وائل بقليل،

ليس حبا في الحفاظ عليها هي وولدها كما يدعون، ولكن طمعا في الميراث الكبير الذي تركه زوجها لها ولولدها المعاق.

منذ أن توفي زوجها، وشقيقه عطية يتتبع خطواتها أينما ذهبت، يريد أن يملأ حياتها، لكنها لم تستجب له. غضب عطية، وراح يتعمد مضايقاتها. اختلق خلافا مع مستأجر المحلات التي أسفل منزل أخيه، واتهمه بمعاكستها، رغم أنها نفت ذلك، ولكن عطية أصر على اتهام الرجل، وتم طرد المستأجر، وأصبح المكان خاليا، بعد أن كان يعود عليها بمبلغ لا بأس به. وعندما سألته عن السبب، رد عليها قائلا:

- ولماذا تريدين مثل هذا الرجل بالقرب منك؟

سكتت خشية أن يتهمها بعلاقة بينها وبين المستأجر.

لم يكتف عطية بذلك، لقد أصرّ أن يعين عددا من التابعين له في المحل التجاري، الذي تركه لها زوجها، ليكونوا عيونا عليها، ينقلون أخبارها إليه، كما ينقلون كل صغيرة وكبيرة عن سير العمل في المحل.. يسرقون من الأرباح، ينال هو النصيب الأكبر، مقابل جزء يتقاسمه المحاسب "نوفل" مع باقي الموظفين.

كما أتي "عطية" بسائق، يعمل على "التاكسي" الذي تركه زوجها ميراثا لولدها، تستخدمه في ذهابها إلى المدرسة وإلى متجر المفروشات، ليكون عينا عليها، يبلغه بكل خطواتها. عبير تعلم كل ما يدور من حولها، ومن السائق، لكنها لا تستطيع أن تبوح بشيء، وآثرت الصمت والتغافل، قانعة بالربح القليل الذي يفيض بعد هذه السرقات.

ورغم ذلك.. هي ليست بحاجة ملحة إلى إيراد المحل أو "التاكسي"، فهناك مبلغ كبير في البنك باسم ولدها، يعود عليها بربح يفيض عن احتياجاتهما، غير مبلغ باسمها هي، وضعه زوجها لها في البنك، دون أن يعلم أحد من أهله، حتى يضمن لها حقها بعد وفاته. ولذلك.. جعلت عبير من المتجر متنفسا تخرج إليه مع ولدها، هربا من سجن الوحدة، في بيت ثلجي طوال الوقت، مع وائل الذي يعيش في عزلة اجتماعية. هكذا هو ليل عبير، دائما في قلق على ولدها المعاق، تختم ليلها بسؤال

تعجز عن إجابته.. ماذا تفعل مع عائلة زوجها؟ وهي وحيدة في مدينة طنطا، ليس لها عائلة أو سند تحتمي به؟. لم تجد جوابا يريحها من حيرتها. طوال جلستها تتسابق دموعها مع قطرات المطر المنهمر على زجاج النافذة، لم ينقذها إلا صوت وائل، ينادي: "ماما.. ماما"

هكذا هو وائل.. دائم النداء عليها في منامه، يشعر بقلق، وعدم ارتياح طوال الوقت.

انتبهت.. عادت من شرودها، ونظرت إليه وهو ملتحف بالفراش، وإلى الساعة التي تجاوزت منتصف الليل بقليل. قامت من مقعدها، دارت في شقتها الواسعة، نظرت من النافذة المطلة على الطريق المؤدية إلى جهة الشرق، والتي ينتهي بحي شعبي، ثم أراض زراعية شاسعة، ثم عادت، وألقت نفسها بجوار ولدها، راحت تستجدي النوم، لعله يأتي.

صديقي العزيز.. مرحبا

اقتربت الساعة من الثامنة صباحا، مازال الضباب كثيفا، ومازالت الشمس عاجزة عن إزاحة الغيوم عن وجهها، والسماء تنذر بمطر غزير. الشارع الطويل المؤدي إلى المدينة، يبدو خاليا، إلا من الذين اضطرتهم الظروف المعيشية للخروج.

"عبد المنعم" في طريقه إلى عمله الحكومي، يخبئ يده في جيب جاكيت أسود من شدة البرد، شاردا في أحزانه، يبحث بعقله عن الأماكن التي لم يسأل فيها عن عمل إضافي، يساعده على أعباء المعيشة. فمنذ شهور قليلة مات صاحب المصنع الذي كان يعمل به محاسبا، فاستغنى الورثة عن عمله عندهم، ولم تشفع له سنوات قضاها محاسبا أمينا في مصنعهم، أو يشفع له حاجته إلى راتبه الشهري. ومنذ ذلك اليوم، وهو يدور في مدينة طنطا، يبحث عن عمل إضافي، تبدأ ساعاته بعد الظهر، ويتناسب مع عمره الذي تجاوز الخمسين بقليل.

"عبد المنعم" له ثلاث بنات: ياسمين الكبرى انتهت من تعليمها الجامعي، ومازالت اثنتان في الجامعة، الثانية نرجس في كلية الطب، أما سوسنة الثالثة ففي كلية الهندسة، وزوجته مريضة منذ سنوات، ويعمل محاسبا في إحدى الهيئات الحكومية. انقضى الشهر الثاني، وهو مازال في رحلة البحث عن عمل إضافي. لم ير في الأفق أي بارقة أمل.. اليأس ينسج خيوطه في نفسه كل يوم، وهو دائم التفكير في مستقبل بناته.. كيف يواصلن مسيرتهن الجامعية.. ومن أين لهن الحصول على لوازم زواجهن.. وكيف يدبر علاج زوجته الشهري، والذي يلتهم أكثر من نصف راتبه الحكومي؟

القلق يفيض في نفس "عبد المنعم"، لا يشعر بلسعات البرد القارس، أو بالرذاذ الخفيف الذي تجود به السماء، وهو في طريقه إلى عمله الحكومي. وفجأة.. انتبه على ضحكات صبي تأتي من الخلف. ابتسم لهذه البراءة، أخذته من أحزانه بعض الوقت.

نداء ضعيف يلهث من بعيد: "انتظر يا وائل.. احذر العربات يا ولدي".

التفت "عبد المنعم" في لهفة، رأى صبيا يضحك للرذاذ الخفيف الذي ينزل

فوق رأسه، يقفز بساقه العرجاء بحيرات صغيرة صنعها الشتاء، وذراعه اليسرى معقوفة خفيفا أمامه، لضعف في أطرافه، لا يأبه بتوسلات أمه التي ينفطر قلبها عليه، وتكرار ندائها.

"انتظر يا وائل.. احذر العربات يا ولدي"

وقف "عبد المنعم"، فتح ذراعيه للصبي، وقال:

- صديقي وائل.

وقف الصبي، نظر إليه برهة، رأى ابتسامة عريضة، سرعان ما تآلفت روحهما. ألقى الصبي نفسه في صدره قبل أن يقع، كأنه صديق قديم حقا. قال وهو لا يزال غارقا في ضحكاته:

- المطر يتساقط على شعري.
- نعم يا وائل.. المطر يحبك.. وأنا أحبك
- وأنا أيضا أحبك.. لكن لا أعرف اسمك.
- أنا صديقك "عبد المنعم".
- وأنا صديقك وائل.
- أعرف.. أعرف..

ثم جاءت امرأة أربعينية العمر، ذات وجه أبيض رقيق الملامح، يخبئ مسحة من الجمال خلف حزن دفين، على جسد يميل إلى النحافة. أمسكت بذراع ولدها، وقالت وهي تلهث بشدة:

- أهكذا يا وائل؟.. تعذبني معك.

يضحك وائل.. لا يدرك مدى انفطار قلبها.

ثم التفتت إلى "عبد المنعم" وقالت:

- شكرا يا "أستاذ".

فرد "وائل" مسرعا وقال:

- إنه صديقي "عبد المنعم".

ونزع ذراعه من قبضتها، وأمسك في ذراع صديقه، وساروا في طريقهم إلى مدرسة التربية الفكرية، التي كانت بجوار مقر عمله الحكومي.

طوال الطريق، وأم وائل تشتكي من ولدها الذي لم ينتظر عربة التاكسي التي اعتادت أن تنقلهم إلى المدرسة، والتي يملكها وائل، وراح يجري في الشارع رغم المطر، ولم يرحم ضعفها.

عاتبه "عبد المنعم" بكلمات هينة طيبة، ابتسم لها وائل، وهز رأسه بشدة. ثم أخد منه وعدا أن يطيع ماما، لأنها تحبه كثيرا. وفجأة.. ظهرت علامات الغضب على وجه وائل، وقال:

- هي تترك حسام يضربني، دون أن تقول شيئا.

قاطعته والدته، وأمرته بالسكوت عن الحديث في هذا الأمر..

التفت عبد المنعم لها، وقال في هدوء:

- خطأ يا أستاذة.. دعي وائل يقول ما يريد.

شعر وائل أن له قوة تدافع عنه، فقبض على ذراع صاحبه أكثر، وقال:

- نعم.. نعم.. دعيني أقول.

لم يقل وائل شيئا، لقد وصلوا إلى الوحدة المحلية التي يعمل بها عبد المنعم، والتي بجوار مدرسة التربية الفكرية.

وقف "عبد المنعم"، وأشار إلى باب المبنى، ثم قال:

- أنا أعمل هنا يا صديقي، إذا أردت شيئا، تعال إلى المكتب، أنتظرك في أي وقت.

ابتسم وائل، وأشار إلى بوابة المدرسة، وقال:

- وأنا بجوارك هنا، نحن جيران، سوف أحضر إليك بعد المدرسة، لنعود معا.

ثم احتضنه وقبله بشدة، وأسرع إلى المدرسة، دون أن ينتظر والدته، والتي تبعته

بخطواتها الضعيفة، ونداءاتها المتكررة: "وائل.. انتظر يا وائل".

ابتسم "عبد المنعم"، شعر براحة تلامس قلبه، شيء أزاح عنه بعضًا من همومه، هز لها رأسه، ثم دخل إلى مقر عمله.

طوال ساعات العمل، لم يعرف عبد المنعم لماذا تعلَّق عقله بهذا الصبي؟.. يمتلئ شفقة عليه، وعلى والدته، والتي عرف منها أنه ابنها الوحيد، والذي خرجت به من الدنيا، بعد وفاة والده منذ خمسة أعوام.

* * *

وعند الظهر، استطاعت الشمس أن تتغلب على الغيوم؛ فسطعت، ونشرت أشعة لينة هينة على الوجود، كأنها تعتذر عن غيابها الذي طال.

عبد المنعم على مكتب في عمله الحكومي، يتحاور مع الزملاء بعد انتهائهم من العمل. فوجئ بـ "وائل" يدخل عليهم، ويقول:

- أين صديقي؟

تعجب الموظفون، ثم علت ضحكاتهم قليلا، عندما هب "عبد المنعم" من مكانه، وقال:

- تعال يا صديقي.. أنا أنتظرك.

لم يبال وائل بضحكاتهم، وقال:

- هيا نعود كما جئنا معا.

ابتسم "عبد المنعم"، وذهب إلى رئيس العمل، قدم ورقة بالاستئذان للانصراف، فابتسم له قائلا:

- اذهب مع صديقك.

خرج يتأبط ذراع "وائل"، تودعهم ضحكات الموظفين.

كانت والدته على الباب. قالت والخجل يكسو وجهها:

- آسفة يا أستاذ على هذا الإزعاج، وائل كما تعرف حالته.

لم تكمل كلماتها، وابتسم وهو يلعب في شعر "وائل" وقال:

- صديقي وله واجب عليّ

- تخيل أنه رفض أن يركب العربة، وأصر أن يعود معك.

- وأنا كنت أنتظره.

قطع وائل حديث والدته، وراح يتحدث بلهجته الطفولية البريئة عن مدرسته التي لا يحبها، وزملائه في الفصل، الذين لا يريدون أن يشركوه معهم في اللعب بالأرجوحة، ولا يلعبون معه الكرة، والمدرس الذي ضرب زميله.

والدته تتأفف من حكاياته، ظنا منها أن "عبد المنعم" سوف ينزعج، لكن عبد المنعم كان يعيش مع كلماته بملامحه وصوته، يتعجب مرة، ويضحك أخرى، ويكشر ثالثة؛ مما جعل "وائل" يزيد في الحكايات، ويعيد بعضها، ثم ختمها بشكوى مريرة من جدته التي تشتمه دائما، ومن مضايقة "حسام" ابن عمه له.

وعندما وصلوا إلى منزل وائل، والذي يقع على ناصية الشارع المؤدي إلى الحي الشعبي، والذي يسكن فيه عبد المنعم، توقفت أم وائل، وقالت:

- تفضل معنا يا أستاذ.

- شكرا.

قال "وائل":

- تفضل تغدى معي يا صديقي.

- ماذا لو أتيت معي أنت.. سأعرفك على أولادي.. أصدقاء جدد؟

بدون تردد، هلل وائل فرحا، وقال:

- خذني معك.. خذني معك.

وأمسك في ذراعه بشدة، لم تفلح محاولات والدته أن تثنيه عن رغبته، رغم

استخدامها كل كلمات الوعيد وحركات التهديد بالويل. وفي نفس الوقت لا تستطيع أن تتركه مع رجل لم تعرفه إلا منذ ساعات قليلة. اضطرت للذهاب معه، يملأها الحرج من إصرار ولدها، وإرغامها على أشياء تدعو إلى الخجل. لكن كان عزاؤها أن "عبد المنعم" يدرك حالة ولدها، وأنه سعيد برفقته، وقضاء باقي ساعات النهار معه.

سار وائل يقفز بساقه العرجاء فرحا، يسبقهما بخطوات قليلة، ثم يعود ليرتمي في صدر "عبد المنعم"، والذي يتضاحك كلما عاد، ويتسابق معه أحيانا.

منذ الصباح، ومنذ أن رأت وجه "عبد المنعم"، وأم "وائل" تعتصر ذاكرتها، تريد أن تتذكر، أين ومتى رأت هذه الملامح الهادئة، والابتسامة المشرقة؟ .. وأخيرا تذكرت أنه الرجل الذي يمر من أمام بيتها عند انتهاء كل شهر، يطرق باب جارتها المسكينة "أم ياسين" بائعة العيش، يعطيها ظرفا أبيض، تفرح به، ثم ينصرف دون أن ينظر في وجهها.

أم ياسين أرملة منذ زمن طويل، ترك لها زوجها ولدا وبنتين، إحدى الابنتين تعاني من عرج خفيف في ساقها اليمنى، نتيجة شلل أطفال منذ الصغر، وحول بسيط في عينها اليسرى؛ ولذلك دخلت أم ياسين سوق العمل، فلم تجد إلا بيع العيش، تأتي به من المخبز، وتوزعه على بعض الأسر كل صباح، مقابل جنيهات قليلة مطلع كل شهر.

اطمأن قلب عبير كثيرا، فهي ذاهبة مع رجل جواد معطاء، يعرف حقوق الفقراء والمساكين في أمواله، ويحنو على ولدها، يحتمل بلاهته، في تواضع شديد، ويمسح عن فمه ما يسيل من لعابه، دون أن يتأفف.

عبد المنعم قليل الحديث، يتابع وائل وهو يمرح بعرجه أمامهما.

أرادت عبير أن تكسر هذا الصمت، فقالت بنبرات يملؤها الشكر والعرفان:

- أول مرة أرى وائل بهذه السعادة.

هز عبد المنعم رأسه، ثم قال:

- يبدو أنه يفتقد الكثير.

قالت في شيء من الدهشة:

- بالعكس.. كل شيء يطلبه أحضره بلا تردد، ولم أحرمه من شيء.

- لم أقصد الافتقاد بمعنى الحرمان من الأشياء، ولكن ما أقصده هو الحب.

- الحب!!

- نعم.. المعاملة بحب.. الحديث بحب..

سكتت عبير لحظة.. راحت تفكر في كلمات عبد المنعم، لكنه واصل كلماته:

- وائل يشعر بالاضطهاد، ويفتقد الحماية

- كيف عرفت هذا.. وأنت لم تره إلا اليوم؟

- شكوته من المحيطين به في المدرسة، وابن عمه في البيت، وجدته أيضا.. كل هذا يدل على افتقاده للعناية التربوية.

توقفت خطواتها، ونظرت إليه في دهشة، وتساءلت مع نفسها: "كيف قرأ هذا الرجل خفايا حياتنا بهذه السرعة؟"

ثم نادى عبد المنعم على صديقه:

- لا تبتعد كثيرا يا وائل.. لقد اقتربنا من المنزل.

وقبل نهاية الشارع الطويل، كان منزل عبد المنعم.. الذي يتكون من دورين: الأول عبارة عن "جراجين"، أحدهما اتخذه مستأجر ليكون دكانا للبقالة، والجراج الآخر مغلق. أما الدور الثاني فهو مسكن عبد المنعم وأسرته، يتكون من أربع حجرات وصالة كبيرة.

صعدوا درجات السلم، ثم انفتح باب الشقة، أطلت ابنته الكبرى ياسمين، فتاة جميلة، ذات ابتسامة جذابة، وملامح هادئة مستكينة، تجاوزت العشرين بقليل، انتهت من المرحلة الجامعية منذ عامين تقريبا. شعرت عبير بألفة عند رؤيتها. استقبلتهم بترحاب بالغ، ورافقتهم إلى حجرة الصالون. انبسطت أسارير وائل، حين قال عبد المنعم لابنته:

- أقدم لك صديقي العزيز وائل.

رحبت به ياسمين، ثم غابت وجاءت بأكواب من العصير.

جلست بجوار وائل، داعبت شعره الناعم، وهي تدس له بعضا من الشيكولاتة في يده.. خبأها وائل في جيبه بسرعة؛ فسألته ياسمين مبتسمة:

- لماذا خبأتها يا وائل؟

- أخبئها من حسام.

- من حسام هذا؟

- ابن عمي.. يأخذ كل مني شيء.

فقال عبد المنعم:

- لا تخف من أحد بعد اليوم يا صديقي.

اطمأن وائل بعض الشيء، وأخرج قطعة من الشيكولاتة في توجس، وفتحها وهو يدور بنظراته عليهم، ثم وضعها في فمه. والخجل يملأ وجه عبير، حاولت أن تستأذن للرحيل، فقالت لولدها:

- هيا يا وائل.. دع الأستاذ عبد المنعم يستريح.

- لا.. دعيني معه بعضا من الوقت.

هزت رأسها في استسلام، في الوقت الذي دخلت فيه ابنته نرجس، ومعها أختها سوسنة، عائدتين من الجامعة، ورحبتا بوائل ووالدته، ثم استأذنتا للانصراف..

لمست عبير سعادة البنات بزيارتهما، على الرغم من أنها أول مرة، لكنها لم تر زوجة عبد المنعم، أو تسمع لها صوتا، فظنت أنها خارج المنزل، أم أنه أرمل؟.. ولذلك لم تسأل عنها.

انطلق وائل في أحاديث كثيرة، تتداخل منه الحكايات، يزداد فيها كلما نظر في وجه عبد المنعم، ويرى الاهتمام والتفاعل مع كل ما يقوله. وكذلك ابنته ياسمين، يرتسم الاهتمام على وجهها، تتسع عيناها تارة، وتضم شفتيها أخرى، وتغضب ثالثة، كلما اشتكى من حسام ابن عمه، أو جاء ذكر جدته في الحديث.

أثناء حديثه، كان يختطف نظرات إلى والدته، يرى فيها إشارات كثيرة، تحثه على السكوت تارة، والوعيد تارة أخرى. لكنه سرعان ما ينسى وعيدها، عندما ينظر في وجه عبد المنعم، يرى فيه السند الذي سوف يحتمي به.. وكذلك ياسمين، ذات الوجه الذي سرعان ما تآلف معه؛ ولذلك راح يتحدث دون توقف.

لاحظت والدته أن ياسمين تجذبه للمزيد للحديث، تريد أن تسمع منه أكثر، وعبد المنعم ينظر إلى ابنته، تهز له رأسها، كأنها تؤكد شيئا في عقل والدها.

ثم دخلت سوسنة، قطعت الحديث بصوتها الرفيع وكلماتها السريعة، ولهجتها الآمرة. جذبت وائل من بين والدته وأختها ياسمين، في شيء من المرح، ارتاح له وائل، أخذته ليجلس بجوارها على كنبة في صدر الحجرة، وسألته وهي تمسك وجنتيه بين السبابة والإبهام:

- هل أنت صديق منعم؟

نظر إلى عبد المنعم، ثم قال:

- اسمه عبد المنعم

- لا.. اسمه منعم.

طأطأ رأسه نحو الأرض وسكت، لا يعرف بماذا أو كيف يجيب!. هزت ياسمين رأسها، فأدرك والدها أنها وقفت على حالته. لكن سوسنة سألته:

- ما اسمك؟

نظر إلى والدته، كأنه يستأذنها للرد، فهزت رأسها وقالت له:

- قل لها ما اسمك.

التفت إلى سوسنة وقال:

- اسمي وائل.

- هل تنتظر التصريح بالإجابة؟

لم يرد عليها، ظل في نظراته إلى والدته، كأنما يستلهم الإجابة من وجهها، يتساءل.. من هذه الفتاة التي اقتحمت نفسه المغلقة، دون أن يعرفها؟ لكنه لا يستطيع أن ينكر أن قلبه ارتاح لها، رغم الجلبة التي أحدثتها في الجلسة. ثم انتبه على صوتها وهي تقول له:

- وائل.. اسمك لا يعجبني.. هل هناك أحد اسمه وائل؟

ازدادت بلاهته، وتحيرت نظراته بين والدته وبينها، لم يعرف ماذا يقول. لكن ياسمين أسعفته قائلة:

- اسألها أنت عن اسمها.
- ما اسمك؟
- اسمي سوسنة.. وينادونني سوسو.

فقال بتلقائية سريعة:

- هل هناك أحد اسمه سوسة؟.

انفجر الجمع ضاحكين، وقرصته سوسنة خفيفا من وجنته، وهي تغيب في الضحك. ثم دخلت نرجس وهي تضحك بقوة مثلهم، يبدو أنها كانت تسمع الحوار. اقتربت من وائل، وأخذته من ذراعه وهي تقول:

- برافو وائل.. أنت عرفت الحقيقة.. هي سوسة فعلا.

ارتاح وائل لكلماتها، وتبعها وهي تمسك ذراعه ناحية الباب، ثم قالت للجميع:

- الغداء جاهز.. تفضلوا.

قام الجميع إلى حجرة مجاورة، بها عدد من المقاعد، حول منضدة كبيرة، في أخرها باب صغير يؤدي إلى المطبخ. جلس وائل بجوار نرجس، لكن سوسنة أصرت أن يكون بجوارها، رغم محاولة والدها بأن تكف عن مضايقة وائل.

كانت لحظات مرحة. لم تكف سوسنة عن مداعبة وائل، فتارة تخطف منه اللقيمات، وأخرى تدس الطعام في فمه، تنطلق الضحكات. حاول أن يجاري سوسنة..

خطف ملعقتها مرة، ولقيماتها أخرى، لكن محاولته في دس الطعام في فمها باءت بالفشل. غمزت لها ياسمين بعينيها، فأدركت سوسنة ما تريد أختها، واصطنعت التغافل، وهيأت فمها ليضع لها الطعام فيه.

تردد وائل.. نظر حوله، فرأى ابتسامة من عبد المنعم، وهزة رأس من ياسمين، تحثه على وضع الطعام في فم سوسنة. تجرأ وائل، ودس لها قطعة لحم كبيرة في فمها.

ثم تعالت الصيحات والضحكات، واصطنعت سوسنة الاستغراب، وذهب وائل في نوبة ضحك طويلة، شعر بحلاوة النصر لأول مرة في حياته.

عبير تنظر إلى ولدها باستغراب، لقد اكتشفت جمال براءته لأول مرة، وجمال ضحكته، بل وجمال هيئته. ضحكت عبير إلى حد البكاء فرحة بوائل، وهمس قلبها شكرا وعرفانا لهذه العائلة التي أدخلت السعادة إلى ولدها.

سرعان ما مسحت دموعها، وقامت تغسل يديها، ثم تلاها الجميع إلى حجرة الصالون. وعادت سوسنة إلى مداعبة وائل مرة أخرى، وهو يتناولون فاكهة البرتقال، ويشربون الشاي. ثم سكت الجميع، عندما جاءت زوجة عبد المنعم تستند على كتف ابنتها نرجس.

قام عبد المنعم مسرعا، وكذلك سوسنة وياسمين، أسندوها برفق شديد، حتى أجلسوها على أقرب مقعد من الباب. ثم تبادلت مع عبير التحية، في نبرات ضعيفة.

بحور من الشفقة، ماجت في قلب عبير، شفقة على هذه السيدة النحيلة، والتي أخذ منها المرض مأخذه، حتى جعلها جسدا هشا ضعيفا، وشفقة على زوجها.. هذا الرجل العطوف الذي يغالب أحزانه خلف ابتسامات لا تفارق قسماته..

ساد الصمت لحظة.. ثم أسرعت سوسنة إلى مداعبة وائل، فقرصته من وجنته، وهي تشتكي إلى أمها في نبرات طفولية مصطنعة:

- هل يرضيك يا أماه ما فعله وائل بي؟

ابتسمت، وأشارت إلى وائل، ذهب إليها، قبلته وقالت ضاحكة:

- نعم.. إنها سوسة فعلا.

ابتسم وائل.. وتبدد الوجل من نفسه بعض الشيء.

قامت سوسنة، وسحبت وائل من ذراعه، غادرت به الجلسة، ودخلت معه حجرة المكتب. ملأته الدهشة وهو ينظر إلى رصات الكتب في المكتبة الكبيرة، وسألها:

- هل قرأت كل هذه الكتب؟

- لست وحدي.. أنا وصديقك منعم.. ونرجس وياسمين.

- أريد أن أكون مثل منعم.. ومثلك يا صديقتي.

- هل عندك كتب يا صديقي؟

- كتب المدرسة فقط.. ولا أعرف فيها شيئا.. ليس فيها صور كثيرة.

سكتت سوسنة برهة، وأشارت له إلى ركن في الأسفل، فيه عدد كبير من المجلات، وقالت:

- خذ ما يعجبك من هنا.

مد يده، وأخذ مجلة واحدة، فابتسمت، وقالت:

- خذ ما يكفيك يا صديقي.

انتابه الخجل، فمدت يدها، وأعطته عددًا من المجلات التي بها صور كثيرة.

عاد مسرعا إلى والدته، وقال فرحا:

- ماما.. ماما.. صديقتي عندها مجلات كثيرة، وأعطتني عددا منها.

قبلته من رأسه، وقالت له:

- قل لها شكرا يا صديقتي.

ثم انشغل وائل بمشاهدة صور المجلات، ودار حوار قصير بين عبير وأسرة عبد المنعم. عرفت عبير أن ياسمين خريجة آداب، قسم علم نفس، وحاصلة على دبلومة إكلينيكي، وتقوم بتحضير الماجستير، وتعمل في مركز لعلاج التأخر العقلي، لذوي

الاحتياجات الخاصة، ويمكن أن تتولى متابعة وائل، حتى تجعل منه إنسانا أقرب للأسوياء.

نظرت عبير إلى وائل، رأته يبتسم ابتسامة مطمئنة، كأنه عثر على جذوره، سعيد بوجوده بين أسرة وضعت يدها على دواخله.

استأذنت عبير، على أمل العودة لزيارة الأسرة مرة أخرى، حتى تطمئن على زوجة عبد المنعم. وعلى باب المنزل، أمسك وائل بذراع سوسنة، وقال لها:

- تعالي معنا.

ضحك الجميع، وقالت نرجس:

- القط لا يحب إلا "خناقه"

وسارت سوسنة، تمسك بذراع وائل، وخلفهما عبير، تتحدث مع ياسمين عن حالة وائل. وتجيبها الأخرى عن الطرق التي سوف تتبعها للنهوض به، حتى يقترب من الأسوياء.

قالت ياسمين في لهجة هادئة:

- أنتِ أهملتِ وائل كثيرا.

- أعترف بذلك.. لكن وفاة والده في سن مبكرة، ومضايقات عمه لنا، وطمعه في ميراثه، جعل الحياة أمامي أضيق من ثقب إبرة.

- وما ذنب وائل؟

تنهيدة طويلة خرجت من أعماق عبير؛ فأدركت ياسمين أن في صدرها جروحا كثيرة، فابتسمت وهي تربت على كتفها، وقالت:

- كل شيء يهون من أجل وائل.. دعيه لي.. سوف أعاونك في النهوض به.

ثم ودعتها هي وسوسنة، على أمل اللقاء في الغد.

وائل جديد

اقترب المغرب، ونسمات الشتاء المنعشة تملأ الأرض.

عبير تنظر إلى ولدها وائل، نظرات جديدة، لم تشعر بلذتها من قبل. الآن تراه منبع سعادتها، وليس مصدر شقائها كما كان من قبل. اليوم.. اكتشفت أن لديها طفلا ذكيا، وليس الغبي كما كانت تعتقد، تعجبت؛ فهذه أول مرة لا يطلب وائل الخروج من المنزل. فمنذ أن جاء من منزل عبد المنعم، وهو جالس على الفراش، يتصفح صور المجلات، يبتسم لكل صورة، دون أن يعرف من صاحب الصورة؟

ثم علا صوت ياسمين في رأسها، حين قالت: "حاجة الطفل إلى الاستماع له، ومعايشة مشاكله، ومشاركته ألعابه، لا تقل أهمية عن حاجته للمأكل والملبس.. هل فعلت شيئا من هذا مع ولدك يا أم وائل؟"

ردت عبير بينها وبين نفسها: "لم أفعل هذا أو ذاك مع وائل، ولذلك توقف الإدراك عنده"

أدركت عبير أنها أخطأت في حق ولدها، وأنها كانت سببا رئيسيا في حالته التي هو عليها، فهزت رأسها في يأس، تحاول أن تلتمس لنفسها الأعذار.

عبير من مدينة بورسعيد، جاءت إلى طنطا وهي طفلة، مهاجرة مع والديها، أثناء حرب ١٩٦٧. ثم توفي والداها عندما أصبحت صبية، وتزوجت والد وائل، الذي كان جارا لها في السكن، ثم توفي بعد زواجها بسنوات قليلة.

شعرت أنها وحيدة، لا سند لها أمام أطماع عطية عم وائل، ولا عائلة تحتمي بها من تقلب الأيام، ولذلك أعمتها أحزانها عن مراعاة ولدها، فلم تشاركه ألعابه، أو تستمع إلى شكاياته من زملائه في المدرسة، وتركته فريسة لمضايقة حسام ابن عمه والاستهزاء به، حتى لا تغضب عائلة زوجها. بل والأدهى أنها صنعت حائلا بينه وبين المجتمع، فلم تخرج به إلى الشارع إلا للضرورة، ولم يفلت من قيد يدها ليلعب مع

الأطفال، خوفا عليه من مجتمع تراه غولا مفترسا مثل عطية، فتقوقع وائل على نفسه، وماتت فيه الطفولة، وأصيب بعزلة اجتماعية.

مسحت عبير دمعة جرت على وجهها، ثم نظرت إلى وائل، الذي مازال يتصفح المجلات التي أعطتها له سوسنة، ينظر على الصور الكثيرة في انبهار. ثم تردد في رأسها سؤال ياسمين مرة أخرى: "ما ذنب وائل؟".. أحنت رأسها خفيفا، وضعته بين كفيها، كأنها تعترف بخطئها وإهمالها لولدها وائل. ثم رفعت رأسها فجأة.. عادت ترفعها بملامح جديدة، بإصرار وتحدٍ. في هذه اللحظة.. قررت أن تغير من حياتها، أن تتخلى عن حياة الخنوع والاستسلام، أن تعوض وائل عما فات من حياته، وأن تحميه، تدفع عنه مضايقات حسام، حتى لو غضبت جدته ووالده عطية.

مسحت وجهها مرة أخرى، واقتربت من ولدها، مسحت على رأسه بكفها، ثم سألته:

- ألن تخرج الليلة إلى المتجر؟

قال دون أن ينظر إليها:

- لا.

- لماذا.. وأنت تحب الخروج، والجلوس أمامه؟.

- لا أصدقاء لي بعد اليوم، إلا منعم وسوسنة وأخواتها ياسمين ونرجس.

تعجبت عبير، وسألت نفسها: كيف استطاع عبد المنعم وأولاده امتلاك أعماق ولدها في أول لقاء، حتى جعلوه يستغني عن الخروج من المنزل، ليعيش مع مجلات أهدتها له سوسن؟

لم تجد إجابة، غير كلمة عبد المنعم، وهي الحب.. نعم الحديث بحب، والمعاملة بحب هي أفضل الطرق الصحيحة للوصول لأعماق الغير.

فجأة.. علا صوت وائل، وهو ينظر إلى صورة في المجلة، ويقول فرحا:

- انظري يا أماه.. الأرنب يجري خائفا.

نظرت عبير إلى المجلة، فرأت صورة لأرنب يجري أمام ثعلب، فابتسمت وقالت:

- نعم يا وائل.. الأرنب يخاف من الثعلب.
- إذن الثعلب أقوى من الأرنب؟
- نعم.. تعال نقرأ القصة يا وائل.

"الأرنب العنيد لا يسمع نصائح والدته، دائما يغضب، ودائما يتمرد على كل شيء في البيت. وذات يوم خرج من المنزل يريد أن يلعب بعيدا عن البيت. نصحته والدته ألا يخرج من المنزل، لأن السماء بها غيوم، واحتمال كبير لسقوط أمطار غزيرة، غير أن الثعلب المكار يتجول في الغابة ليل نهار. لم يخضع الأرنب لنصائح والدته، وخرج من البيت مسرعا. لم يعرف الأرنب أن الثعلب كان مختبئا خلف جزع الشجرة؛ فعندما ابتعد قليلا عن البيت، هجم عليه، يريد أن يأكله؛ فجرى الأرنب أمامه، وهو يصرخ: "أماه.. يا أماه.. أدركيني يا أماه". أسرعت أمه نحو الصوت، يسبقها الحارس الأمين "الكلب"، الذي ظل يقول: "هو هو.. أنا قادم.. لا تخف يا صديقي"، وعندما سمع الثعلب صوت الكلب، خاف وهرب مسرعا. وعاد الأرنب إلى أمه، يبكي ندما، وتأسف لها، ووعدها أن يسمع لنصائحها بعد اليوم".

انطلق وائل في الضحك، على وجهه سعادة غامرة، وسألها:

- ما اسم الكلب؟

احتارت والدته، فلم يذكر الكاتب اسما للكلب، لكنها قالت له:

- اختر له اسما يا وائل.

فكر برهة.. ثم قال:

- لا أعرف.. سوف أسأل صديقي منعم، وصديقتي سوسنة، وكذلك سوف أسألهما عن اسم الأرنب.

ثم طلب من والدته أن تعيد قراءة القصة مرة أخرى؛ فقد كان وائل سعيدا

جدا وهو يسمع الحكاية، يضحك في كل مرة ضحكات عالية، كأنه يسمعها للمرة الأولى، مما أسعد والدته؛ فهذه أول مرة تقرأ له قصة، وأول مرة تشاركه شيئا أحبه؛ ولذلك قررت أن تشتري مجلات وكتب الأطفال، لتستعين بها على الحكي. لكن وائل فاجأها قائلا:

- أريد أن تشتري لي أرنبا.

نظرت إليه ولم تقل شيئا، لكنه استطرد قائلا:

- أعرف أنك سترفضين، لكن سوف أطلب من صديقي منعم أن يشتري لي أرنبا، ويشتري لي كلبا أيضا.

سألته في لهفة:

- لماذا يا وائل؟

- أحب الأرانب، وأريد الكلب ليحميها من الثعلب المكار.

سكتت عبير، وشردت بعقلها، تساءلت مع نفسها: "إلى هذه الدرجة تحب منعم يا وائل؟"

أسرة منعم

في حجرة الصالون، جلست ياسمين مع والدها عبد المنعم وباقي الأسرة، أخبرهم كيف كان اللقاء مع الصبي وائل، وكيف أصر على مرافقته إلى هنا. قالت ياسمين:

- وائل حالته متأخرة.
- هل وقفت على حالته يا ياسمين؟
- نعم يا أبي.
- ما هي؟.
- شكواه المتكررة من حسام ابن عمه، ومن جدته، تدل على أنه يشعر باضطهاد كبير وسط عائلته، مع السلبية التي عليها والدته، والتي من المفترض أن يجد فيها السند الذي يحتمي به، غير العقاب الشديد الذي تتوعده به بين الحين والآخر. هذا الجو الأسري، كفيل بأن يجعل الطفل جبانا يخشى قول أي شيء، أو فعل أي شيء، يجعل منه طفلا يخبئ شخصيته الحقيقية خلف صمته، خشية العقاب المتكرر.

هز عبد المنعم رأسه مبتسما، سعيدا بابنته التي وقفت على حالة وائل.

قالت نرجس:

- ومعنى أن يرتمي في حضنك في أول لقاء، ويتمسك بك، دليل على افتقاد الحب والأمان، وافتقاده لقدوة تنير له طريق الحياة.

قال عبد المنعم:

- نعم يا نرجس.. هذا ما أدركته منذ الوهلة الأولى.

أما سوسنة، قالت في نبرات يملؤها الأسى:

- مسكين هذا الولد، ليس له شخصية مستقلة، وهذا يدل على العقاب المتكرر الذي يتلقاه من الأم.

ابتسمت أمها، وقلت بصوتها الضعيف:

- الآن مسكين.. وقد قال عنك سوسة.

تعالت الضحكات. ثم قال عبد المنعم:

- ويبقى السؤال يا ياسمين: هل هناك أمل في النهوض بعقله، وإبراز شخصيته المدفونة؟

قالت ياسمين وهي تنظر إلى والدها:

- رغم أنهم تأخروا عنه كثيرا.. إلا أن الأمل دائما موجود.

- جميل جدا.. هل لك رؤية مبدئية لحالته؟

- نعم.. أولا يجب الابتعاد عن السلبيات المحيطة به، لإخراج الشخصية الحقيقية التي في داخله، ثم تقويمها إذا كان بها اعوجاج، وإعطائه الشعور بالحرية فيما يقول، وفيما يفعل.

- وماذا أيضا؟

- ثانيا.. لا بد أن يشعر بالأمان، ويشعر أن هناك من يسانده، وقدوة تنير له طريق السير، وقتها يتجاوز عقبات الحياة بكل سهولة، ويخترق بشخصيته كل صعاب.

قالت نرجس:

- قبل كل هذا.. يجب أن يكون عنده استعداد نفسي أولا، وهل عنده شخصية في أعماقه كما تقولون؟

قالت ياسمين:

- معنى أنه يريد الحديث عن كل ما يقلقه، إذن هو يريد أن يخرج شخصيته

الحقيقية المنطوي عليها، غير أن كل إنسان بداخله شخصية أقوى وأكبر من الشخصية التي نراها في العلن، لا تخرج إلا في ظل مناخ يتسم بالثقافة، ومساحة من الحرية لتتمدد فيه.

مرت لحظات من الصمت، ثم نظر عبد المنعم إلى زوجته، وسألها مبتسما:

- كيف حالك اليوم يا ست الكل؟

من خلال ابتسامة هادئة، وبنبراتها الضعيفة، قالت:

- الحمد لله.. اليوم أفضل من الأمس.

قام عبد المنعم من مقعده. زوجته تعرف أنه سوف يغير ملابسه، ثم يخرج إلى المدينة مرة أخرى، لكي يبحث عن عمل إضافي كعادته منذ شهرين. قالت له:

- إلى أين يا أبا نرجس؟

- سوف أخرج.

- لا.. لا تخرج.. واجلس معنا اليوم.

قطع الهاتف حديثهما برناته المتتالية. رفع سماعة التليفون، فإذا بصديقه الحميم (جابر) يبلغه بأنه عثر له على عمل في مدينة المحلة الكبرى، وعليه أن يسافر غدا أو بعد الغد، حتى يرى طبيعة العمل، وليلتقي مع صاحب المصنع الذي سوف يعمل فيه محاسبا، ثم أعطاه العنوان؛ فظهرت على ملامحه ابتسامة رضا، حمد ربه في سريرته.

أخيرا حصل على عمل يبدأ من بعد الظهر، ليكمل مسيرة تعليم بناته، ويساعده في تجهيزهن للزواج، ويستطيع أن يشتري العلاج لزوجته المريضة. ثم التفت إلى بناته وزوجته، لمح الشفقة في نظراتهن الصامتة، شفقة عليه لأنه سيعود إلى العمل بعد الظهر، وهذا يعني أنه سوف يعمل ثلثي النهار، غير إرهاق السفر اليومي من مدينة طنطا إلى المحلة، والعودة منها.

لم يجدن غير الصمت. أراد عبد المنعم أن يبدد السكون الذي خيم على الجلسة، فاغتصب ابتسامة من شفتيه، رسمها على وجهه، وهم أن يقول شيئا، لكن

زوجته أشارت إلى ابنتها ياسمين، وقالت:

- عودي بي إلى الفراش يا ابنتي.

هبت البنات من جلستهن، وأسندنها حتى فراشها.

عبد المنعم يدرك ما ينتابها من حزن، وأنها هربت لتبكي وحدها. انتظر حتى خرجت البنات من حجرة الاستقبال، ثم ذهب إليها، جلس بجوارها على طرف الفراش، ومسح على رأسها في حنان شديد، وهي ممددة على ظهرها. قالت وهي تحبس دمعة:

- هل ستسافر إلى المحلة الكبرى غدا؟
- ليس هناك خيار آخر.

أدارت وجهها عنه، وكتمت تنهيدة ترهق صدرها؛ فقال مهونا الأمر عليها.

- عسى أن يكتب الله لنا الرزق هناك يا أم ياسمين
- أخشى عليك من السفر كل يوم.

اقترب بوجهه إلى وجهها، وقال متضاحكا:

- ما ظنك بي يا زوجتي؟ أنا مازلت فتيا وأستطيع العمل والسفر لمسافات طويلة دون تعب

ربتت على كفه بحنان، وقبلتها، فاحتضنها بشدة، ثم تهيأت للنوم.

أمنية

في اليوم التالي، خالفت الشمس قانون الشتاء، وتغلبت على غيوم السماء، افترشت الأرض بضوئها الساطع، وأرسلت دفئها على الكائنات.

وائل أمام بيته المطل على الشارع، يتطلع إلى آخر الطريق، ينتظر ظهور صديقه وهو قادم من بعيد. يحاول أن يفلت نفسه من قبضة والدته، يريد أن يطير إلى "عبد المنعم"، يتمنى لو ذهب إليه، ليوقظه من نومه.

عبير تمسك بحائط منزلها، تستقوي به، تتمنى هي الأخرى أن يأتي "عبد المنعم"، حتى يهدأ ولدها من حركاته التي لا تنقطع، والتي وصلت بها إلى حد الإرهاق. سألته:

- أتحب صديقك يا وائل؟

أجاب دون أن يلتفت إليها:

- نعم.. أحبه جدا.

قالت في نفسها: "لا شك أنه إنسان خلوق".

أخيرا ظهر "عبد المنعم" من بعيد، امتدت يده المعقوفة ناحيته، صاح عاليا:

- ها هو صديقي.. انظري يا أماه.. لقد جاء هناك.

- لقد أتعبتني يا وائل.. اهدأ يا ولدي.

لم يبال وائل برجائها المتعب، ظل في حركاته، ومحاولة الإفلات منها، يريد أن يجري للقاء صديقه، لكنها مازالت تمسك بذراعه، تخشى عليه من العربات المارة، ومن وقوعه على الأرض. وعندما اقترب "عبد المنعم"، انفلت وائل من قبضة والدته، هرول ناحيته بخطواته العرجاء، فأسرع "عبد المنعم" هو الآخر، يخشى أن يقع صديقه على الأرض. أخذه في أحضانه، وقبله مرات، كغائب منذ أيام.

سرت طمأنينة في قلب أم "وائل"، شكرت الله في نفسها، لقد وجدت قلبا يحنو على ولدها المعاق.

- سوف أشكو إليك من وائل يا أستاذ "عبد المنعم".

هكذا قالت عبير عندما اقترب عبد المنعم.

- ماذا فعل؟

- أصر أن ينزل إلى الشارع قبل شروق الشمس، وقبل مجيئك بساعة أو أكثر، ورفض أن يركب العربة إلى المدرسة، يريد أن يسير معك كل يوم.

التفت "عبد المنعم" إلى "وائل"، وقد تمثلت قسماته الغضب، وقال:

- أتريدني أن أغضب منك؟

انكمش وائل في نفسه، وابتسم خجلا، فاستطرد عبد المنعم قائلا:

- عدني أن تسمع كلام "ماما، وأن لا تخرج من المنزل إلا إذا أتيت أنا.

انفرجت أسارير "وائل"، وهز رأسه بشدة كعادته، وقال:

- حاضر.. حاضر.

لم تتغير حكايات "وائل"، ولم ينس ما كان في الأمس.. سأل عن سوسنة، وضحك عاليا، وهو يحكي كيف وضع الطعام في فمها، ثم سأل:

- هل هي غاضبة مني؟

ابتسم عبد المنعم، وقال:

- لا.. هي تحبك.. فأنت صديقها.

- نعم.. وأنا أحبها.. فهي صديقتي مثلك.. وكذلك نرجس وياسمين أيضا.

قطعت عبير حديثهما، وسألت عبد المنعم:

- كيف حال أم نرجس اليوم؟

تنهد، قائلا:

- الحمد لله.. حالتها مستقرة إلى الآن.

قالت بأسى:

- ربنا يشفيها، ويحفظها لكم.

ثم قطع وائل حديثهما، وعاد للحديث مرة أخرى، وقال لصديقه:

- أريد أرنبا وكلبا.

تعجب عبد المنعم، وسرعان ما قصت عليه عبير القصة، فابتسم عبد المنعم، وقال:

- جميل جدا.. أعدك أن أحضر لك أرنبا وكلبا، خلال الأسبوع القادم.

- لا.. أنا أريدهما اليوم.

أوقف عبد المنعم خطواته، وانحنى قليلا، حتى أصبح وجهه في وجه وائل، وقال:

- من اليوم سوف أسافر إلى المحلة الكبرى للعمل، ولن أعود إلا في وقت متأخر، وأنت عرفت المنزل، اذهب هناك في أي وقت مع ماما، سوف تجد صديقاتك هناك، اجلس معهن بقدر ما تشاء.

انطفأ بريق الابتسامة في وجه وائل، وانقبض قلب عبير، لم تعرف لماذا؟!

ثم استطرد عبد المنعم قائلا:

- سوف أكون معك كل صباح، أما بعد الظهر سوف أكون في العمل.

لم يفهم وائل ماذا يقصد صديقه، وكذلك عبير، فسألته:

- ما الأمر يا أستاذ عبد المنعم؟

رفع قامته، ثم قال:

- الحمد لله.. عثرت على عمل إضافي في مدينة المحلة الكبرى.

- وعملك هذا؟

وأشارت إلى مقر عمله الحكومي الذي اقترب. قال:

- عملي هنا لا يتغير، أما العمل الثاني سوف يبدأ بعد الظهر، محاسبا في أحد المصانع.

- وهل ستسافر كل يوم؟

- نعم.

سكتت برهة، ثم قالت:

- هل أنت في حاجة لمثل هذا العمل؟

- مرتب الحكومة لا يكفي أصغر أسرة.

سكتت برهة، كانت تفكر في شيء، ثم قالت:

- ماذا لو لم تذهب اليوم إلى المحلة الكبرى.

نظر إليها، مستفسرا، قالت:

- حاول أن تؤجل السفر إلى المحلة اليوم، ربما تجد هنا عملا يكفيك، ويرحمك من السفر والعودة كل يوم.

هز رأسه، ولم يعرف.. ماذا تريد أم وائل؟

* * *

أمام مدرسة التربية الفكرية، جلست أم وائل وسط نساء كثيرات مثلها يقضين ساعات اليوم الدراسي في حكايات خاصة وعامة، ينتظرن خروج أولادهن. أم وائل صامتة، شاردة بعقلها بعيدا عن جلسة النساء، تفكر: لو ذهب عبد المنعم إلى عمل جديد، سوف يبتعد عن ولدها، في الوقت الذي رآه وائل قدوة ورمزا يحبه، سوف يخرج به من عالم البلادة والجبن، إلى عالم الأسوياء، كما قالت ابنته ياسمين.

كانت قلقة.. ليس على عبد المنعم وأسرته فقط، بل على ولدها الذي تعلق به، وأصبح له عالم جديد يعيش فيه، منذ زيارتها لأسرة عبد المنعم أمس في المنزل، عالم

لم تعرف هي أن تخلقه لولدها، رغم أنها حاصلة على مؤهل جامعي.

أغمضت عينيها برهة، كانت تبحث في أعماق أفكارها عن وسيلة تبقي بها عبد المنعم بجوار ولدها، ثم عثرت عليها، فقامت من بين النساء مسرعة، لم ترد على إحداهن حين سألتها لماذا الرحيل والوقت مازال مبكرا.. وما زال ولدها في المدرسة؟

أشارت إلى إحدى عربات الأجرة، طلبت من السائق أن يذهب بها إلى ميدان "ستوتة" الميدان واسع إلى حد كبير، يقع وسط حي شعبي شديد الزحام، ومزدحم بالمحلات التجارية، غير أنه المدخل الرئيسي للوافدين من محافظة المنوفية إلى مدينة طنطا.

توقفت بها العربة وسط الميدان، أمام أحد المحلات لبيع الأدوات الكهربائية، لصاحبه الحاج "بدران"، أو "عمدة الميدان" كما يطلقون عليه، وذلك لأنه موكل بشئون الميدان، وحل المنازعات بين التجار. نزلت عبير من العربة، دخلت المحل، وألقت عليه التحية. عرفها الحاج بدران.. لقد كانت تربطه صداقة بزوجها الراحل. رحب بها، وأجلسها أمامه. وبعد أن اطمأن على أحوالها وعلى وائل، سألته:

- أريد استئجار محل هنا في الميدان..
- محل منسوجات مثل الذي تركه لك زوجك؟
- المحل الآخر استولى عليه عطية.
- وماذا تفعلين بالمحل؟
- أنت تعرف أن زوجي كان يعمل على مشروع لتجارة ملابس الأطفال، مع محل المنسوجات، ولكنه توفي قبل أن يتم المشروع، فأنا أريد أن أكمل مسيرته، بشرط أن تجعل هذا الأمر سرا، حتى لا يعلم به عطية شقيق زوجي.

سكت الرجل برهة، ثم قال:

- حظك جميل.. المحل موجود بجواري، وصاحبه عرضه للإيجار منذ يومين فقط.

فرحت عبير، فهي تعرف هذا المحل، كما أن الموقع ممتاز، ثم أخبرته أنه من الممكن أن تعود إليه بعد ظهر هذا اليوم. ثم استقلت عربة أجرة، عائدة إلى مدرسة التربية الفكرية، جلست وسط النساء، تترقب باب المبني الذي يعمل فيه عبد المنعم، تتعجل الساعة التي يخرج فيها، لتخبره بما تفكر فيه.

وبعد ما يقرب من ساعتين، رأت ولدها يخرج من باب المدرسة، وأسرع على باب المقر الحكومي الذي يعمل به صديقه عبد المنعم، ثم خرج يتأبط ذراعه فرحا، مثل البارحة. لم تنهره أو تلومه كما كانت تفعل من قبل، لقد كانت في حاجة لرؤيته هي الأخرى، حتى تبلغه بما تفكر فيه. وبعد أن ساروا خطوات، تحدث فيها وائل عن زملائه في المدرسة، وماذا فعلوا معه من مضايقات، قالت عبير:

- قلت لي أنك تبحث عن عمل.
- نعم
- ما رأيك في التجارة؟
- أنا محاسب لا أفهم في عملية البيع والشراء
- ماذا لو رأيت من يعلمك؟
- التجارة تحتاج مكانا، وتحتاج مبلغا من النقود، وأنا لا أملك هذا أو ذاك، غير أنني لم اعمل تاجرا من قبل.

ابتسمت وقالت:

- ما رأيك لو توفر لك كل ما تحتاجه؟

سكت "عبد المنعم"، لم يصدق أنه سوف يجد العمل بهذه السهولة. نظر إلى وائل، وسأله في نفسه: "لماذا لم تركب السيارة أمس؟".. لماذا تصر أن تصاحبني في الذهاب والعودة؟.. لماذا أسقط في قلبك وتسقط في قلبي؟.. هل هي مقدمات لخير قادم؟

ظنت أم "وائل" أنه يستصعب الأمر، فقالت:

- أستاذ "عبد المنعم"، منذ زمن وأنا أبحث عن رجل أمين، يساعدني في عمل تجاري كان يحلم به زوجي رحمه الله، وأرى فيك هذا الرجل.

نظر إليها، لكنها استطردت قائلة:

- لا تخف من شيء، سوف تجد الأمر أسهل مما تظن.
- أخبريني عن الأمر بوضوح.
- ماذا لو جلسنا في مكان لأشرح لك ما أفكر فيه؟.

ذهبوا إلى كافتيريا كانت في الطريق، وجلس الثلاثة حول منضدة، فقالت:

- عندي مشروع تجاري.
- ما هو؟
- سوف نقيم شراكة بيننا لتجارة ملابس الأطفال.
- التجارة تحتاج إلى مكان ورأس مال، وأنا لا أملك هذا أو ذاك كما قلت لك.
- سوف أوفر لك كل شيء.. وأنت تكون شريك بالإدارة والحسابات.
- هذا كثير جدا يا أم وائل.
- لا.. ليس كثيرا.. منذ زمن وأنا أبحث عن رجل أمين، يساعدني في مشروع تجاري، كان زوجي يحلم به، بجوار تجارته في المنسوجات، مشروع مربح للغاية، وهو تجارة ملابس الأطفال.
- إذا كنت في حاجة إلى شريك حقا، فمن السهل أن تجدي شريكا أكثر مني مالا وخبرة في التجارة.
- أنت تملك أكثر من المال، أما الخبرة تأتي بالممارسة.
- ماذا؟
- يكفيني فيك الأمانة.. ويكفي أن ولدي تعلق بك وبأولادك بطريقة أتعجب لها.

نظر عبد المنعم إلى وائل، الذي كان مشغولا في تناول عصير الموز، ومبهورا

بهذا الجو الهادئ، فمسح على رأسه، وداعبه خفيفا. لكن عبير قالت:

- هيا بنا.. نذهب إلى ميدان ستوتة، لترى المتجر، فهو في موقع ممتاز.

سرعان ما انتقلوا إلى ميدان ستوتة، والتقوا بالتاجر العجوز صديق زوجها القديم، واصطحبهم إلى صاحب المتجر المعروض للإيجار.

المتجر واسع، به باب داخلي، يؤدي إلى مخزن كبير، ولا ينقصه شيء، حتى الأرفف ودهان الحائط والكهرباء، وأوراق الملكية أيضا، يبدو أن صاحبه كان يهيئه لاستقبال البضاعة فقط. ولذلك لم تجادل عبير كثيرا مع صاحبه، وأسرعت بكتابة عقد الإيجار عند أحد المحامين، ثم تم تحرير عقد شراكة بين عبير وعبد المنعم، عند نفس المحامي.

لم يصدق عبد المنعم ما يحدث، لم يتخيل أن الإجراءات سوف تتم بهذه السهولة.

أنا رجل قوي

قبل ظهر اليوم التالي، استأذن عبد المنعم من عمله الحكومي. استأجر سيارة، جلس في المقعد الخلفي بجوار أم وائل، في طريقهم إلى مدينة المحلة الكبرى، حسب اتفاق كان بينهما أمس. أما وائل كان بجوار السائق، فهو يحب دائما أن يرى الأرض وهي تجري كما يظن.

ذهب عبد المنعم في تفكير طويل يتساءل مع نفسه: "لماذا أقدمت عبير على مثل هذه الشراكة.. هل هي مقتنعة بما تفعله.. أم هي وسيلة من وسائل المساعدة لحالتي؟""

عبير كانت تشعر براحة تامة.. ولم لا.. وقد وجدت أسرة تحنو عليها وعلى ولدها، دون أن يعرفوا عنها شيئا؟ ثم تساءلت في نفسها: "هل حقا يوجد في هذا العالم المستأسد بشر مثل هذا الرجل وأسرته، بشر بهذه الطيبة والعفة، يرتاح لهم القلب منذ أول وهلة؟.. لماذا يعيش مثل عطية في هذا العالم.. ولماذا يكون للأشرار النصيب الأكبر في الحياة دون الآخرين؟"

قطعت السيارة ما يقرب من نصف الطريق، ومازال كل منهما منفردا بنفسه، يسبح في التفكير وحده. وائل مازال ينظر يمينا ويسارا، تغلبه الدهشة كلما رأى البيوت تجري، وكذلك الأشجار، وليست الأرض وحدها كما كان يظن. حتى السائق كان يركز في الطريق، دون أن يصدر لفتة أو بنت شفة، كأن الجميع ذاهب إلى مأتم للعزاء.

وأخيرا.. انتبهت عبير، نظرت حولها، ثم أرادت أن تقطع هذا الصمت الموحش، فقالت:

- كان لزوجي صديق في المحلة الكبرى، يمتلك مصنعا لملابس الأطفال، وعرض علي زوجي أن يفتح فرعا لتجارته عندنا في طنطا.

انتبه عبد المنعم، وأدرك آخر كلماتها، فنظر إليها مبتسما، لتعيد الكلمات مرة أخرى، فقالت:

- وقام زوجي بدراسة المشروع، ورأى أنه أفضل ربحا من تجارة المنسوجات، وبدأ في تنفيذه بالفعل، لكن الموت لم يمهله.
- رحمه الله يا أم وائل.
- أدعو الله أن نجد الحاج إبراهيم صاحب المصنع.
- إن شاء الله.

ويبدو أن وائل قد مل من مراقبة الطريق، فالتفت إلى صديقه منعم، وقال:

- متى ستحضر لي الأرنب؟

ابتسم صديقه وقال:

- أعدك.. إذا عدنا من المحلة قبل المغرب، سوف أحضر لك أرنبا.

تهلل وائل فرحا، ثم قال:

- والكلب أيضا.

اعترضت عبير بشدة، وقالت:

- الكلب .. لا.. لا.

نظر عبد المنعم إليها، معترضا على طريقتها في الحوار والرفض. ثم سأل وائل:

- لماذا تريد الكلب؟
- أريده ليحمي الأرنب من الثعلب المكار

ابتسم عبد المنعم، ومسح على رأس وائل، وقال:

- وهل أنت ضعيف؟

نظر وائل إليه.. لم يفهم معنى السؤال.. فقال عبد المنعم:

- الكلب يحمي الضعفاء.. أما أنت رجل قوي، تستطيع أن تحمي نفسك.. وتحمي الأرنب.

قال وائل مبتسما:

- نعم.. أنا رجل قوي أستطيع أن أحمي الأرنب من كل الثعالب.
- هل تريد كلبا الآن؟
- لا.. لا.. أنا رجل قوي.

وراح يسرد قصة الأرنب والثعلب التي قصتها له والدته أمس، ويتفاعل عبد المنعم مع كل كلماته، ويصطنع التعجب والدهشة، مما جعل وائل يحكي بحماس شديد، ويتفاعل مع الأحداث، ويضرب كفا بآخر من كثرة الضحك، حتى اجتذب السائق للضحك هو الآخر.

وبعد موجة عارمة من الضحك، نظرت عبير إلى عبد المنعم نظرة امتنان، وأكبرته في نفسها، لأنه استطاع بذكائه أن يجعل وائل يرفض وجود الكلب، رغم أنه كان مصرا على شرائه.

* * *

في شارع الحنفي بالمحلة الكبرى، وقفت بهم العربة أمام متجر كبير، دخلت عبير وخلفها عبد المنعم، متأبطا ذراع وائل. سألت عن الحاج إبراهيم صاحب المصنع؛ أشار لها أحد العمال إلى سلم يؤدي إلى الدور الثاني، فصعدوا.

عرفها الحاج إبراهيم، فقام فرحا معبرا عن سعادته بهذه الزيارة، واستقبلهم استقبالا حسنا، وأرسل الرحمات على زوجها صديقه القديم، ثم ذهب يحتضن وائل، ويداعبه، لأنه لم يره منذ أن كان رضيعا. ثم حكت له عن رغبتها في تحقيق أمنية زوجها، بفتح متجر لتجارة ملابس الأطفال، بالشراكة مع عبد المنعم. وأشارت إلى عبد المنعم الجالس بجوارها، ثم قالت:

- الأستاذ عبد المنعم شريك لي في متجر الملابس، وهو المكلف بالتعامل معك

إن شاء الله.

رحب الحاج إبراهيم به، ثم سألها:

- وماذا عن متجر المنسوجات؟

ابتسمت ابتسامة مريرة، وقالت:

- استولى عليه شقيق زوجي، بحجة مراعاة مصالحنا، ولم يأتني منه إلا النذر القليل جدا، رغم أنني أعرف كم يربح هذا المتجر.
- عوضكم الله خيرا يا أم وائل.
- والآن أتيت إليك لتساعدني في تجارة ملابس الأطفال، بعيدا عن عطية.
- تحت أمرك طبعا.

أخرجت من حقيبة يدها مبلغا من النقود، وضعته أمامه على المكتب، وقالت:

- هذا جزء من المبلغ الآن، وحين تأتي البضاعة، سوف أدفع الباقي فورا.
- يا أم وائل.. ما كان بيني وبين زوجك اكبر من أي نقود.. أعيدي النقود إلى حقيبتك.
- لا.. حتى يكون التعامل بيننا على أساس أن أعيد لكم البضاعة المتبقية، في نهاية كل موسم.

ابتسم الحاج إبراهيم، ثم قال:

- رغم أن هذا الشرط لم أقبل به مع أي واحد من الزبائن، لكن سأقبله منك هذا الموسم فقط.
- شكرا لكم يا حاج.
- متى تريدون البضاعة.
- إذا أمكن اليوم.. المحل جاهز لاستقبال البضاعة.
- تعالوا معي.. لنرى البضاعة أولا، وغدا سوف أرسلها لكم.

وقام الحاج إبراهيم من مكتبه، واصطحبهم إلى المخزن، وأطلعهم على البضاعة كلها، ذكر لهم الأسماء والأنواع بتمهل، حتى يستوعبوا ما يقول. أعجبوا بما رأوا، ثم قالت عبير:

- أرجو أن ترسل مع البضاعة أحدا من رجالك، يعلمنا كيف نرص البضاعة، وكيف نعرضها، وسعر واسم كل نوع.

- حاضر.. بعد ظهر الغد.. سوف يكون عندك تشكيلة رائعة من الملابس، وسوف أرسل لكم اثنين من رجالي، يعلمونكم ما تريدون أن تتعلموه.

وعند الرحيل.. سلم الحاج إبراهيم على عبد المنعم بحرارة، وأعطاه رقم التليفون، حتى يكون التواصل بينها أسرع وأسهل. ثم قبّل وائل، وأعطاه "بذلة" هدية؛ فشكرته عبير، وتركت له عنوان المتجر، واتفقت معه على أن ترسل باقي المبلغ مع السائق الذي سيحضر البضاعة.

* * *

في الشارع الخلفي لمتجر الحاج إبراهيم، كان متجر "أبو بطة" للمفروشات. رجل هادئ الملامح، رقيق الصوت، نحيف الجسد. تتآلف الروح معه منذ الوهلة الأولى.

جلست عبير أمامه، وخلفها يقف وائل مع صديقه منعم. طلبت عبير فاتورة بأسعار وأنواع البضاعة التي عنده. فرح الرجل، ظن أنها سيدة أعمال، وسوف تشتري منه كمية كبيرة، وكتب لها الفاتورة المطلوبة. نظرت فيها جيدا، ثم أخرجت عددا من الفواتير من حقيبتها، وألقت عليها نظرة، ثم هزت رأسها في أسف، واستأذنت للرحيل.

سألها الرجل في هدوء:

- ما الأمر يا سيدتي؟

قالت بصوت حزين:

- للأسف.. أنا أتعرض للسرقة باسمك يا حاج، لكن.. ليس لك أي ذنب.

انتفض الرجل مكانة، وقال بصوت ذهب منه هدوؤه:

- كيف..؟.. أخبريني بالله عليك.

ناولته الفواتير، نظر إليها، ثم نادى على العمال عنده، وسألهم جميعا:

- هل فيكم من أخرج هذه البضاعة؟

نظروا في الفواتير، وكانت إجابتهم واحدة: "لا". قال الرجل:

- لا ننكر أن الفواتير هذه، نفس التي تخص متجرنا، وهذا أمر طبيعي أن يستخرج أي إنسان دفتر فواتير، لكن.. الخط ليس خط أحد منا، غير الأسعار المكتوبة فيها، غير الأسعار التي نبيع بها، وليس بوسعي أن أفعل شيئا غير أن أقطع علاقتي التجارية بهم، لأنهم ليسوا أمناء.

ابتسمت عبير، وقالت:

- بعد أيام، سوف ينقطعون هم عن التجارة.

ثم ودعت الرجل، بعد أن وعدته أنها سوف تعود إليه بعد أيام.

في طريق العودة، جلست عبير بجوار منعم في المقعد الخلفي، واتخذ وائل مكانه بجوار السائق. قالت عبير لمنعم:

- أرأيت.. وعرفت لماذا أبحث عن رجل أمين مثلك؟.

هز عبد المنعم رأسه، وقال بهدوء:

- المثل الشعبي يقول: "المال السايب يعلم السرقة".

قالت في مسكنة:

- لم أترك الأمر بإرادتي.. لكن عطية نصّب نفسه واليا علينا.

نظر في وجهها وقال بنبرات المؤنب:

- لا يستطيع أحد الصعود فوق ظهرك.. إلا إذا انحنيت.

كانت كلماته سوطا على قلبها، أيقظه من خضوعه واستسلامه لواقع ترفضه من

البداية، بدد خوفا كان يتملكها. أغمضت عينيها، وشردت بعقلها لحظة، ثم هزت رأسها.

أدرك عبد المنعم أنها قررت شيئا ما، ولكنها أسرَّته في نفسها.

* * *

رغم أن عبد المنعم يدرك تماما، أن الابتسامة مفتاح لكثير من الأبواب المغلقة، إلا أنه مازال لا يصدق أن ابتسامته في وجه وائل، فتحت له أبواب خير لم يتوقعها من قبل، ولم تلمس خياله ولو مرة؛ فها هو الآن أصبح شريكا في محل تجاري لملابس الأطفال، وغدا سوف يمارس التجارة، بعد أن يتعلمها من عبير، ومن المتخصصين الذين سوف يأتون مع البضاعة.

نظر إلى وائل، ومسح على رأسه في حنان بالغ، فبادره وائل قائلا:

- ها قد وصلنا إلى طنطا.. هل ستشتري لي أرنبا كما قلت؟

رد عبد المنعم وهو يبتسم:

- نعم.. تعال معي سوف أشتري لك بيت الأرانب، وفيه اثنان من الأصدقاء، يعيشان معا.

هلل وائل فرحا مرة أخرى، لكن والدته اعترضت، وقالت:

- لا لا تكلف نفسك. وائل يصر على تنفيذ كل ما يطلب وهذا أمر غير محبب في الطفل.

اتجه إليها عبد المنعم برأسه، وقال:

- أنا سعيد جدا بهذا الإصرار.

- لماذا؟

- هذا يعني أن ذاكرته تحتفظ بما يسمعه.. وهذا مؤشر ممتاز للنهوض بالذاكرة.

ثم استطرد عبد المنعم قائلا:

- هذا التقدم جاء من حكاية قصة واحدة. فماذا لو كنا نستخدم معه أسلوب الحكي منذ سنوات؟

سكتت عبير، شعرت بندم شديد، لأنها لم تحاول النهوض بعقل ولدها طوال السنوات الماضية، وسجنته معها في أحزانها وقلقها من العالم الخارجي، مما عاد على ولدها بالخمول العقلي والبدني أيضا، بل وجعلت منه كائن يخشى الخروج من قوقعتها، فأصبح الجبن سمة من سماته الكبرى. ثم انتبهت على صوت عبد المنعم، وهو يوجه السائق إلى عنوان بيته ويقول.

- لا بد أن نتناول الغداء أولا، ثم نذهب إلى تاجر دجاج بالقرب منا وأشتري لوائل ما يريد.

حاولت أن تقول شيئا، لكن وائل لاحقها قائلا:

- دعيني وصديقي.

ابتسمت عبير، وقهقه عبد المنعم عاليا، فرحا بكلمته العفوية هذه، حتى أن السائق قهقه هو الآخر، وقال:

- لا مكان لأحد بين حبيبين.

هللت سوسنة فرحا، عندما رأت وائل على الباب. جذبته من رأسه برعونة لينة، وقالت وهي تشد شعره الناعم:

- وحشتني يا صديقي. (كأنها لم تره منذ زمن).

قال والدها ضاحكا:

- بهدوء يا مجنونة.

لم تهتم بكلمات والدها، وجذبت وائل للداخل، وهي تنادي على أخواتها:

- يا سوسن.. يا ياسمين.. صديقي وائل هنا.

أعجبت عبير بهذا الاستقبال المرح، ودخلت بصحبة عبد المنعم، وسلمت على البنات، ثم أم نرجس، التي كانت تجلس في حجرة الصالون: "الغداء يا بنات.. نحن

جوعى جدا"

هكذا قال عبد المنعم، ولم يقل شيئا عن أحداث اليوم.

أدركت عبير أن هذه الأسرة كريمة إلى حد الإفراط، كريمة للكرم نفسه، دون انتظار مقابل لهذه الكرم.. وهذا ما تردده بينها وبين نفسها منذ الأمس.

لم تتغير مداعبات سوسنة لوائل، بل زادت وسط ضحكات الجميع.

وبعد الغداء، سأل عبد المنعم سوسنة:

- ماذا وراءك غدا يا سوسنة؟

- عندي محاضرة واحدة في الصباح، سوف أنتهي منها عند الظهر.

- جميل جدا.

ثم نظر إلى نرجس، وسألها نفس السؤال، فقالت:

- ليس عندي محاضرات في الغد.

ابتسم عبد المنعم، وقال:

- إذن أنتما معنا في الغد.. أما ياسمين، سوف تكون بجوار أمها حتى نعود.

تعجب الجميع، ونظروا إلى بعضهم، ثم سألن عن السبب. أخبرهم عبد المنعم بأمر الشراكة التجارية مع أم وائل، وبأن أول يوم في العمل سوف يكون غدا، فهو يحتاج من يساعده، في الأيام الأولى على الأقل. ساد الجلسة هرج خفيف مملوء بعبارات الفرح.

شعرت عبير بسعادة تجتاحها، عندما رأت الفرحة في عيون الجميع، فأدركت أن لصانع السعادة، نشوة خاصة، لا يذوقها إلا أصحاب القلوب الطاهرة، فقالت في نفسها: "أنتم من سبقتموني بإدخال السعادة في نفسي ونفس ولدي، ومن علمتموني كيف نسعد الآخرين" وكانت أم نرجس أكثر أفراد الأسرة فرحا، لأن زوجها سوف يكون بجوارها ووسط الأسرة أكثر الوقت، ولذلك شكرت أم وائل كثيرا. وأخيرا قطع عبد المنعم هذا الهرج، وقال وهو ينظر إلى وائل:

- هيا يا صديقي.. نشتري لك هديتك.

قفز وائل من جلسته، وارتمى في صدر عبد المنعم، وقال:

- هيا يا صديقي.

ثم سحبه من ذراعه، وخرجا في طريقهما إلى بائع الدجاج، والذي كان في الشارع الخلفي لمنزل عبد المنعم، وخلفهما سوسنة تستمع لأم وائل، وهي تحكي عن تأثير القصة في نفس وائل.

ارتسمت السعادة على وجه سوسنة، وقالت:

- أتعرفين أن هذا مؤشر إيجابي في إدراك وائل، وأنه سوف يستجيب للعلاج بسرعة مذهلة.

عند بائع الدجاج، هلل وائل فرحا، عندما رأى أرنبا أبيض اللون، يقفز في قفص من الخشب، فاختاره، واختارت سوسنة أنثى بيضاء اللون أيضا، وسألت وائل:

- ما اسم الأرنب الذي اخترته؟

نظر إلى عبد المنعم، يستلهم منه الإجابة، فرآه يهز رأسه، ثم نظر إلى والدته، فهزت كتفها، تاركة له الإجابة هي الأخرى. قالت سوسنة:

- الأرنبة التي اخترتها أنا.. اسمها سوسنة، مثل اسمي.

فابتسم.. ثم قال بلهجة سريعة:

- الأرنب الذي اخترته أنا.. اسمه وائل.

هللت سوسنة، وضحك الجميع، ثم استأجر عبد المنعم إحدى عربات الربع نقل، لنقل الصندوق بالأرانب، مع جوال من العلف، إلى بيت أم وائل.

عند البيت، أمهلهم عبد المنعم دقائق، وسار في الشارع بخطوات سريعة، حتى وقف أمام منزل "أم ياسين" بائعة الخبز. طرق الباب، فخرجت أم ياسين مسرعة، وخلفها ولدها ياسين، الذي تخطى العشرين من عمره بقليل، ثم ابنتها سعاد، الحاصلة على دبلوم الثانوي التجاري، العام الماضي، ثم الصبية رحمة، والتي تعاني من حول

خفيف في عينها اليسرى، وعرج واضح في ساقها اليمنى. سلم عليهم، واستدعى الشاب ياسين، ليساعده مع السائق، في حمل الصندوق من العربة إلى السطح. وسرعان ما جاء ياسين مع عبد المنعم، وتبعته والدته ثم أختاه البنات، ربما يحتاج إلى مساعدتهن. وعلى السطح، التفت عبد المنعم إلى "رحمة"، وقال لها مبتسما:

- الآن عندك عمل كبير يا حاجة رحمة. "هكذا كان يداعبها بهذا اللقب".

ابتسمت وقالت:

- ما هو يا عمي؟

- عليك بمساعدة وائل في إطعام صديقيه "سوسنة ووائل" كل صباح.

- وهل أجد طعامهما هنا كل يوم؟

ابتسم وقال:

- والدتك سوف تشتري البرسيم والخضروات وهي قادمة من السوق، وأنت ستأتين به كل صباح، ثم يتولي وائل إطعامهما وجبتي الغداء والعشاء.

التقت ابتسامتها مع ابتسامة وائل، فرحين بهذا العمل المشترك بينهما.

ثم أخرج مبلغا من النقود، ووضعه في كف أم ياسين، ثمن الخضروات والأعلاف التي ستشتريها للأرانب. ثم التفت إلى ياسين، وأخته سعاد، وسألهما:

- هل عندكما عمل ما تلتزمان به غدا؟

ياسين عامل حر، يعمل باليومية. هز رأسه، ثم قال:

- غدا سوف أخرج على باب الكريم.

ابتسم عبد المنعم وقال:

- حسنا.. من الغد سوف تعمل في محل بيع لملابس الأطفال، وأختك سعاد أيضا.

ثم أعطاه عنوان المتجر، وانصرف مع سوسنة، التي أوصت وائل بالاعتناء بالأرانب.

دخل عبد المنعم بيته مع ابنته سوسنة. كانت في انتظاره زوجته وابنتاه ياسمين ونرجس، استند بظهره إلى المقعد. نظر في وجه أسرته فوجدهن ينتظرن كلماته في شوق. أخذ شهيقا طويلا، مملوء بشكر وحمد الله على نعمه، ثم راح يقص عليهن الأحداث، وهو مازال في عجب من المفاجآت المتوالية منذ الأمس. أما نرجس أتت بابتسامة عريضة، وقالت فرحة:

- لم أصدق أننا أصبحنا تجارًا، ولنا محل تجاري.

وكذلك ياسمين، قالت مثل كلمات أختها، فقال عبد المنعم بصوت هادئ:

- هكذا تكون الأشياء الثمينة، لا يمكن أن تشترى بالمال، رغم ثمنها البخس جدا.

قالت سوسنة:

- ما هو الثمن يا أبي؟

- الابتسامة يا سوسنة.. نعم الابتسامة مفتاح الكثير من مغاليق الرزق.

البداية

خرجت الشمس من مخبئها، أرسلت دفئا لينا هينا في نفوس البشر. أشعلت في الجسد نفحة من النشاط، ظهرت في خطوات سوسنة، التي تتأبط ذراع والدها، في الشارع الطويل المؤدي إلى وسط المدينة، على أن يفترقا عند رأس الشارع، لتذهب هي إلى الجامعة، ويميل هو بخطواته يسارا إلى عمله، بعد أن يصطحب وائل ووالدته إلى مدرسته، فهما ينتظرانه على رأس الشارع.

كعادته.. كان وائل في انتظار صديقه عبد المنعم. عندما لمحهما من بعيد، انفلت من قبضة والدته، وأسرع إليهما، فأسرعت سوسنة الخطى، وتلقته بين ذراعيها:

- اشتقت إليك يا صديقي.
- وأنا أيضا يا صديقتي.
- ماذا فعلت مع أصدقائنا أمس؟

أشرقت السعادة في قلب وائل أكثر، وقهقه عاليا، ثم قص عليها كيف وضع لهما الطعام والشراب.. وكيف كانا يأكلان العلف.. وكيف كانت الساعات التي قضاها يلاعبهما، ورؤيته لهما وهما يجريان هنا وهناك فوق السطح الواسع، وكيف أمسك بهما ووضعهما في الصندوق.

ثم قطّب حاجبيه، وقال في نبرات شبه غاضبة:

- سوسنة شقية جدا.

اصطنعت الدهشة وقالت:

- ماذا فعلت يا صديقي؟
- دائما ما تخطف الطعام من أمام وائل.

اشترك عبد المنعم في الحوار، وقال:

- لأن صديقتها سوسنة تأكل جيدا.

هز وائل رأسه وقال:

- يجب أن آكل جيدا، حتى يكون وائل قويا مثل سوسنة.

وبعد خطوات قليلة، انضمت إليهم عبير، تبادلت التحية معهم، ثم أسرعت بالشكوى من وائل، لأنه ظل بجوار أصدقائه الأرانب حتى العاشرة من الليل، في هذا الجو الشتوي؛ فعاتبته سوسنة عتابا لينا، لكنه قال:

- كنت أحرس أصدقائي من الثعلب المكار.

ابتسم عبد المنعم وقال:

- لا تقلق يا صديقي.. الثعلب لن يأتي.. لأنه يعرف أنك رجل قوي.

* * *

استأذن عبد المنعم من عمله الحكومي مبكرا، وذهب إلى الخطاط، وطلب منه لافتة كبيرة باسم "ملابس وائل وسوسنة". ثم ذهب إلى صانع الأختام، واستخرج "أكليشيه"، باسم ملابس وائل وسوسنة، كما اشترى عددا من الدفاتر" فواتير"، واستقل عربة أجرة، وذهب إلى المدرسة التي بها وائل.

بعد قليل، خرج وائل من المدرسة، وركب العربة بجوار السائق، ووالدته بجوار عبد المنعم في المقعد الخلفي، وذهبوا إلى ميدان ستوتة. كان ياسين وأخته سعاد ونرجس في انتظارهم. فتح عبد المنعم الحانوت، وسرعان ما قام ياسين بتعليق اللافتة على الحانوت، فابتسم وائل عندما رأى اسمه بالحجم الكبير. وقام باقي الأفراد بتنظيف الأرفف، من غبار خفيف، ثم جلسوا في انتظار عربة البضاعة القادمة من المحلة الكبرى.

وبينما هم كذلك، فإذا بوائل يصيح مهللا: "صديقتي سوسنة" كانت قادمة من بعيد.

ناولته عددا من القصص والمجلات، اشترتها له وهي عائدة من الجامعة.

جلس وائل يتصفح القصص، سرعان ما صاح مهللا.

- ها هما معا.. ها هما معا.. وائل وسوسنة.. ماذا أتى بهما هنا؟.

أدرك عبد المنعم أن سوسنة اختارت قصص ومجلات عن الأرانب، حتى تربط القصص بالواقع في عقل وائل. ثم أخرج عبد المنعم الأكلاشيه من كيس صغير كان معه، وطلب من وائل أن يلمس به غلاف إحدى المجلات. هلل فرحا، عندما رأى اسمه باللون الأحمر، بجوار اسم سوسنة.

وبعد قليل.. وقفت عربة نصف نقل أمام المتجر، ونزل منها رجلان، وسألا عن السيدة "عبير أم وائل". أدرك الجميع أنها العربة التي ينتظرونها. سرعان ما تم التعارف بينهم، ثم اشترك الجميع في نقل البضاعة من العربة إلى المحل، وبدأ الرجلان يرصان كل نوع في مكان على الأرفف، بمساعدة الأفراد، بعد أن أغلقا نصف باب الحانوت. قسم الرجلان المتجر إلى عدة أقسام، بحسب نوع البضاعة، فكان على اليمين قسم خاص بملابس الأطفال حتى عمر الثالثة، ثم قسم للأكبر سنا ثم الذي يليه، حتى عمر الحادية عشرة، فأصبح المتجر مقسم إلى أربعة أقسام..

أعطى عبد المنعم تعليماته لياسين وأخته سعاد، وابنتيه نرجس وسوسنة وعبير أيضا، وأوصاهم أن يختص كل واحد منهم بقسم معين، ليعرف أسماء البضاعة جيدا، ومواصفاتها وثمنها من العمال.

كان العاملان ماهرين في رص وعرض البضاعة، وفي تعليم فريق العمل فنون البيع. بعد ساعتين من العمل الجاد، انتهوا من رص البضاعة وعرضها، ومن كتابة الأسعار على كل قطعة.

أشار عبد المنعم إلى سوسنة، فأومأت برأسها، يبدو أنه هناك أمر متفق عليه من قبل.

اصطحبت وائل، وأسرعت به إلى أحد المطاعم في آخر الميدان، واشترت كمية من الكباب والكفتة، فحمل وائل بعضها، وحملت هي الباقي.

وجلس الجميع على الأرض، يتناولون الطعام، وأثنى العاملان على المتجر،

وموقعه الممتاز، والذي لا يحتاج إلى إعلان، فهو في مكان مزدحم بالحركة، كما أثنيا على البضاعة التي انتقاها الحاج إبراهيم صاحب المصنع.

وبعد أن تناولوا وجبة الغداء والمثلجات، بدأ العاملان في إلقاء تعليماتهما الأخيرة، وجلس عبد المنعم على مكتب صغير في أول المتجر، أمامه الأكلاشيه، وبعض من الأوراق، ووقف كل واحد من المجموعة في قسم اختص به، ومعه قلم ودفتر فواتير.

أما العاملان، وقف أحدهما في منتصف الحانوت، والثاني أمام عبد المنعم مع وائل.

نظر عبد المنعم في ساعته، فكانت الخامسة بعد الظهر، ثم نظر للجميع، وقال: "بسم الله نبدأ" ثم فتحوا باب المتجر عن آخره، فاستبان للمارة ما فيه من بضاعة، وبدأ الزبائن في الدخول شيئا فشيئا، ثم ازداد الزحام، ليس للشراء فقط، بل للمشاهدة ومعرفة الأسعار.

عبد المنعم يراقب الوافدين من الباب، كان يبحث عن شيء في رأسه. ثم نادى على امرأة معها طفلة صغيرة، وأخرى تحمل طفلا، وقفتا بجواره لحظة، لم يعرفا لماذا؟ ثم أعلن عبد المنعم عن هدية لأول طفل وأول طفلة دخلا المتجر. فأطلقت والدة الطفلة زغرودة مدوية، عندما رأت الفستان يزيد ابنتها جمالا، فانتبه كل من في الميدان، وجاء عدد كبير يستطلع الأمر.

وبدأت حركة السؤال والبيع في الازدياد. يبيع أحدهم نوعا من البضاعة، وينادي على العامل الذي في أرضية الحانوت، أو ينادي على وائل، فيأخذ البضاعة المباعة، إلى عبد المنعم، فينظر إلى سعرها، ثم يقوم العامل الآخر بوضع البضاعة في كيس، ويودع الزبائن بابتسامة هادئة، بعد أن يدفع ثمنها.

صديقي وائل.. كذا كانت تنادي سوسنة، كلما باعت شيئا. يسرع وائل إليها، ويأخذه منها، ويضعه أمام عبد المنعم على المكتب. وبشكل تلقائي، ودون أي ترتيب، أصبحت كلمة "صديقي" تتردد بين العمال والزوار، حتى أن عبير نادت على ولدها،

وقالت: "صديقي وائل".

ابتسمت سوسنة وعبد المنعم، وابتسمت هي الأخرى خجلا، لم تعرف كيف خرجت منها هذه الكلمة؟.. وكذلك ياسين وأخته رحمة، وأيضا العاملان، الجميع وضع الأسماء والألقاب جانبا، وأصبحت كلمة "صديقي" هي السائدة، كلما أراد أحد أن ينادي على الآخر.

وائل سعيد بالحركة وسط الزحام. والدته تراقبه، تشفق عليه.. حاولت أن تهدئ من حركته بإشارة منها، لكن سوسنة رأت أن تتركه يفعل ما يريد، وكذلك عبد المنعم.

ورغم شفقة عبير على ولدها، إلا أنها سعيدة، فها هو وجد عالما ينطلق فيه، من بوتقة الحزن التي فرضتها عليه.

يا إلهي.. ها هو يحرك ذراعه اليسرى، يحمل بها فستانا أو بنطلونا أو تيشيرت.. يحركها كما يحرك الذراع الأخرى.. هل نسي إعاقته.. أم الأطراف هي التي نسيت ضعفها!!.

ثم نظرت عبير إلى عبد المنعم نظرة امتنان، وقالت في نفسها: "أين كنت من زمن أيها الرجل؟"

ظلت حركة البيع والسؤال عن الأسعار مشتعلة، حتى اقتربت الساعة من التاسعة مساء، فبدأ الزبائن في الانسحاب رويدا رويدا، وأصبح المتجر خاليا من الزوار.

جلس الجميع، كل واحد في مكانه، على وجوههم ابتسامة رضا وسعادة.

قال عبد المنعم للعاملين الذي أرسلهما الحاج إبراهيم:

- برأيكما.. ماذا ينقص المكان؟

ابتسم العاملان، وقال كبيرهما:

- ما شاء الله.. العمل هنا رائع، لكن ينقصه نوعان من البضاعة، وهما "برمودة"، وبنطلون شعبي، بحكم المنطقة التي تحيط بنا.

وقال الثاني:

- وأيضا تيشرت شعبي، بجوار أنواع التيشرتات الموجود هنا، حتى يجد الزبون كل ما يريده.

ابتسم عبد المنعم وقال:

- جميل جدا يا أصدقائي.

ثم وضع عبد المنعم يده في الدرج، وأخرج مبلغا من النقود، وأعطاه لكبيرهما، وطلب منه أن يعد المبلغ. بعد قليل، قال الرجل: "ألف جنيه"، قال عبد المنعم:

- هذا المبلغ لشراء ما قلتما عليه، وعليكما أن تأتيا به غدا من المصنع.

ثم أعطاه ألف جنيها أخرى، وقال له:

- هذا هو المتبقي من البضاعة التي جاءت اليوم.

ثم دس في يده مبلغا ثالثا، وقال له:

- هل هذا يرضيكما.. أم تريدان أكثر؟.

عد الرجل المبلغ الأخير، ثم ظهرت على وجهه ابتسامة رضا، وقال:

- بارك الله فيما رزق.. هذا جميل جدا يا صديقي، وإن شاء الله سوف نكون هنا من الصباح، ومعنا البضاعة المطلوبة.

ثم نظر العامل الكبير في البضاعة المرصوصة نظرة سريعة، وقال:

- يجب أن نهيئ الأرفف من جديد، ونملأها بالبضاعة، استعدادا لصباح الغد.

وسرعان ما تعاون الجميع في نقل كمية من البضاعة من المخزن، وتنظيم الأرفف من جديد، كما قال الرجل، ثم خرج العاملان من المتجر، عائدين إلى المحلة الكبرى.

ونادى عبد المنعم على ياسين، ودس في يده مبلغا من النقود، وقال له:

- أنت مدير المتجر من الآن، فعليك أن تعرف كل صغيرة وكبيرة، وتتعلم كيف تسير العمل، حتى نأتي بعامل أو اثنين، يساعدوك في الصباح، بدلا من سوسنة

وأم وائل.

شعر ياسين بموجة من الاعتزاز بنفسه. ولم لا.. وقد حصل على عمل أفضل من عمله السابق كعامل يومية، يحفظ عليه قوة بدنه، ونظافة ملبسه، لا يتعرض فيه لحر الشمس، أو برد الشتاء، غير أنه بالطبع أفضل أجرا من غيره.

ثم أشار عبد المنعم إلى أم وائل، فجاءت وجلست بجواره، ورأته وهو يجمع الفواتير التي معه، ويقارنها بالفواتير التي مع ياسين وسوسنة ومعها، ثم يعد المبلغ الذي معه، بعد أن أخرج المصروفات في مسودة جانبية، وأخيرا مد يده بكيس النقود إلى أم وائل، فرفضت أن تلمسه، وقالت:

- احتفظ أنت بكل شيء.

- يجب أن تعرفي المبيعات والمصروفات.

- أنا أعرف من أنت يا أستاذ عبد المنعم.

ثم قاموا بإغلاق المتجر، وركب وائل ووالدته مع ياسين وأخته عربة أجرة، عائدين إلى بيوتهم، على أمل الحضور في تمام الساعة التاسعة صباحا. واستأجر عبد المنعم وابنتاه عربة أخرى، عائدين إلى منزلهم، يمتلئون سعادة بهذا العمل الجديد.

* * *

بعد تناول العشاء، جلس عبد المنعم وسط أسرته، وقد ظهرت السعادة على وجوه الجميع. ترك سوسنة تحكي أحداث النهار، وكيف كانت الازدحام وحركة الشراء.. وماذا فعلت مع وائل الذي كان يتحرك هنا وهناك، دون ملل أو كلل، سعيدا بحركته بين الزبائن.

تقاطعها نرجس، تريد هي الأخرى أن تثبت دورها الكبير في نجاح سير العمل اليوم، وأنها قامت ببيع أكبر عدد من فساتين الأطفال.

ياسمين تتلهف لسماع الحديث من أختيها، تتمنى لو كانت معهما، لتجرب هذا المناخ التجاري مثلهم. والأم في مقعدها، تبتسم ابتسامة رضا، تشكر الله في سريرة

نفسها، على هذه السعادة التي تفيض من عين أولادها. وأخيرا أشار عبد المنعم بيده، سكت الجميع، فقال:

- متى ستبدئين مع وائل يا ياسمين؟

- إن شاء الله بعد الغد.. سوف أصطحبه معي إلى المركز الذي أعمل به، وأعرضه على أساتذتي، ثم نبدأ الطريق الصحيح للعلاج.. ولكن قبل هذا لا بد من الذهاب إلى مدرسة وائل، والحديث مع أساتذته، حتى استطيع الوقوف على كل ما يعانيه.

قالت سوسنة:

- اليوم.. لاحظت وائل يتحرك بشكل غير عادي، من ينظر إليه لا يظن أنه يعاني من تأخر عقلي، وإعاقة حرية.

ابتسمت ياسمين وقالت:

- وائل كان سجين بوتقة صنعتها والدته بأحزانها، فاندثرت طاقة الطفل، ونامت مخبوءة في قاع النفس، والخروج من هذه القوقعة، والاختلاط بالناس، سوف يسرع بعودته إلى طبيعته كطفل أقرب للأسوياء.

قال عبد المنعم:

- وماذا عن الإعاقة الحركية؟

قالت ياسمين:

- إعاقة وائل عبارة عن ضعف في الأطراف، أهملت والدته في متابعته بالعلاج الطبيعي، لوفاة زوجها، وأحداث متتالية كثيرة مرت بها.. فمن السهل علاج هذه الإعاقة، بدرجة يقترب بها إلى الأسوياء، لكن ليس الاقتراب الكامل. بدليل أنه يستخدمه أثناء احتياجه له. أما ساقه اليسرى، لا حيلة للطب فيه، وليست عائقا لمسايرة الحياة.

ابتسمت نرجس سعيدة بتحليل أختها، وقالت:

- كل ما سمعته منك الآن صحيح يا ياسمين، لقد كان يحرك ذراعه بشكل طبيعي جدا.
- نعم يا نرجس.. الاختلاط والحركة، أفضل وسيلة لإفراغ طاقة حبيسة داخل الإنسان، فإن لم تخرج قتلته.

رجع عبد المنعم بظهره للخلف، ثم قال:

- إذن بعد الغد، سوف تتولين أمر وائل.
- نعم.. وربما آخذه ليقضي معي باقي اليوم في المركز الذي أعمل به، حتى يكون أمام عيني طوال الوقت.
- على بركة الله.

وائل غاضبا

رغم ابتسام شمس الصباح، وأشعتها الدافئة، إلا أن هناك مسحة من الحزن على وجه وائل.. هذا ما لمسه عبد المنعم في خطوات وائل، وهو يجري إليه، استقبله بالأحضان كعادته.

كان وائل يمسك بالمجلات في يده، دفعها إلى عبد المنعم، وقال بنبرات غضب:

- خذها.. واحك لي أنت ما فيها عن الأرنب وائل، والأرنبة سوسنة.

أدرك عبد المنعم أنه يشتكي من والدته، لأنها لم تحك له شيئا ليلة البارحة، فقال:

- لماذا يا صديقي؟

- والدتي رفضت أن تحكي لي شيئا.

تضاحك عبد المنعم، وقال:

- عندي لك مفاجأة يا صديقي.

فتح وائل فمه في دهشة، وكأن المفاجأة تحققت، وقال بوجه مبتسم:

- ما هي يا صديقي منعم؟

اقتربا من وقفة أم وائل، تبادلت التحية مع عبد المنعم، فعاد وائل إلى الشكوى من والدته، لأنها لم تحك له حكاية ليلة أمس عن أصدقائه الأرانب. نظر عبد المنعم إلى أم وائل، وهز رأسه معاتبا إياها. عللت أنها عادت إلى المنزل مرهقة، ولذلك لم تحك له ما يريد. ثم علت نبراتها بالشكوى من وائل، وقالت:

- صعد بالمجلات إلى السطح في هذا الجو البارد، يريد أن تشاهد الأرانب الصور معه، ولم ينزل إلا بعد العاشرة.

عاتب عبد المنعم صديقه بكلمات لينة، ثم انتقل إلى الحديث عن العمل، وقال:

- سوف نغير من جدول حياتنا اليومية قليلا يا أم وائل.

- كيف؟
- لا بد أن يتواجد أحد منا في المتجر من أول النهار، ثم يأتي الآخر، ويستلم منه الإشراف على العمل.

سكتت أم وائل، فأدرك أنها تفكر في أمر ولدها، فاستطرد قائلا:

- بالنسبة لوائل، سوف يتغير جدول حياته من الغد.

قالت في لهفة:

- كيف؟.
- من بعد الغد.. سوف تبدأ ياسمين معه رحلة العلاج، وسيقضي معها الوقت في المركز الذي تعمل به حتى السابعة مساء، ليكون تحت إشرافها أكثر الوقت.

تنفست عبير ارتياحا، ثم قالت:

- وماذا عن المدرسة؟
- سوف أستلم وائل منك في الصباح، وأصطحبه إلى المدرسة، ثم تأخذه ياسمين.

ابتسمت عبير وقالت:

- هذا الجدول جاء في وقته.
- لماذا؟
- منذ أيام.. لم أذهب إلى متجر المنسوجات، وهذا يقلق "عطية"، فهو لا يرتاح إلا إذا عرف كل خطواتي.
- إذن عليك التواجد في متجر المنسوجات من مساء اليوم.
- وهذا ما يحدث.

تركت عبير ولدها بصحبة عبد المنعم، وذهبت إلى متجر ملابس الأطفال، لتشرف على العمل. وعندما نزلت من العربة، وجدت الحاج بدران "عمدة الميدان" في

صدر متجره، فاتجهت إليه، وألقت عليه تحية الصباح:

- صباح الخير يا عم الحاج
- صباح النور يا أم وائل.
- لي عندك طلب يا حاج.
- تحت أمرك.. تفضلي.
- أريد بنتين تعملان معنا، وأتمنى أن يكون عندهما خبرة في البيع.

ابتسم الحاج بدران، والتفت إلى فتاة معه في دكانه، كانت تمسح الأرفف من الأتربة.

- يا "سماح".

جاءت مسرعة:

- نعم يا حاج..
- أين أختك الآن؟.
- في المنزل بدون عمل.
- هل تريد أن تعمل؟
- يا ليت يا حاج.
- إذن اذهبي واتني بها، مع "غادة" ابنة الحاجة "روحية"، لتعملا في محل الملابس.

لم تنتظر "سماح" أن ينتهي الحاج بدران من كلماته، وتركت "فوطة" كانت في يدها، وانطلقت إلي بيتها، يبدو أنهما في حاجة إلى العمل حقا. التفت الحاج بدران إلى "عبير" وقال لها:

- سوف تأتي لك فتاتان، لهما خبرة كبيرة في البيع.

شكرته عبير، ثم انصرفت.

لم تمر سوى دقائق، وكانت الفتاتان أمام أم وائل. ارتاحت عندما رأت الأناقة في

الملبس رغم بساطته، والألفة في الملامح، وهدوء الطباع. إحداهما "ثناء" والأخرى "غادة".

ثم جاء العاملان من المحلة الكبرى، في عربة نصف نقل، وتم إنزال البضاعة، ووضعوا بعضا منها على الأرفف، والبعض الآخر في المخزن.

في هذا الوقت، جاءت "سوسنة"، وقفت بين غادة وثناء، تتعلم منهما كيفية التحدث مع الزبائن، وكذلك ياسين وأخته رحمة، كانا يلتقطان فنون البيع من الفتاتين.

ثم بدأ الزحام يشتد شيئا فشيئا، وعبير تراقب كل صغيرة وكبيرة، من خلف المكتب الذي تجلس عليه. حتى اقتربت الساعة من الثانية، دخل وائل يحمل كيسا به جزء من وجبة الغداء، وخلفه عبد المنعم، يحمل كيسا أكبر. وضع وائل الكيس على الأرض، وأسرع ناحية سوسنة وهو يصيح:

- صديقتي سوسنة.. أوحشتني.

فتحت ذراعيها، وصاحت هي الأخرى:

- صديقي وائل.. أوحشتني كثيرا.

هذا هو اللقاء المعتاد كلما التقى وائل مع صديقته سوسنة. ثم قال:

- أريدك أن تحكي لي عن أصدقائنا الأرانب.
- حاضر يا صديقي.. بعد العمل.

تركت عبير المكتب لـ عبد المنعم، وانضمت إلى البائعات، حتى جاء وقت الغداء، طلب عبد المنعم من أحد العمال مواربة الباب للغداء، افترش الجميع الأرض، حول الكباب الذي أحضره عبد المنعم. سرعان ما تم التعارف بين الجميع، ورحب عبد المنعم بالفتاتين. وكانت كلمة صديقي أو صديقتي، هي المذيب للثلوج بين أفراد المتجر، فتآلف الجميع، وأصبحوا أسرة واحدة.

مدرسة وائل

في اليوم التالي، ذهبت ياسمين إلى المدرسة بصحبة أم وائل. رحب بهما مدير المدرسة، وأجلسهما أمامه. طلبت ياسمين الملف الخاص بوائل، والذي جاء به من المرحلة الابتدائية، حتى تطلع عليه، وتعرف مدى استيعابه في السنوات السابقة.

لاحظت ياسمين أن رسوب وائل في الابتدائية بدأ من المرحلة الخامسة. هزت رأسها، أدركت أن هناك شيئا طرأ على حياته، أكسبه العزلة الاجتماعية التي هو عليها.

شكرت مدير المدرسة، ثم ذهبت إلى فصل وائل مع والدته. وعندما وقفتا على باب الفصل، هلل وائل بصوت عالي: "صديقتي ياسمين". وقام من مقعده مهرولا إليها.

انتبهت المدرسة للقادم على الباب، حملقت فيها برهة، ثم قالت:

- أهلا ياسمين.. كيف حالك.

سرعان ما عرفتها ياسمين هي الأخرى، إنها "شيماء" كانت زميلة لها أيام الجامعة، ومتزوجة منذ شهور قليلة. احتضنتا بعضهما، وتبادلتا التحية، ثم أخذتها ياسمين خارج الفصل، وسألتها عن وائل، وعن الدراسة هنا في المدرسة، فقالت:

- وائل لم أعرف حالته بالضبط حتى الآن، ولكنه دائم الانطواء، والتقوقع داخل نفسه، يخشى من اقتراب أي شخص منه، ربما يكون تعاليا منه، أو هي طبيعته الانطوائية.

تعجبت ياسمين، وسألتها:

- كيف لم تعرف حالته حتى الآن؟

- لا تنسي أننا مازلنا في بداية الشهر الثاني من الدراسة، غير أن الفصل به أكثر من أربعين تلميذا، ولا بد من دراسة كل تلميذ على حدة.

هزت ياسمين رأسها، ثم استطردت:

- ولكن.. لاحظت شيئا غريبا منذ يومين فقط.

- ماذا؟

- لاحظت بداية في الحركة، وبداية أحاديث باسمه بينه وبين بعض زملائه، أشعر أن هناك شيئا جديدا طرأ في حياته.

ابتسمت ياسمين، وقالت:

- ما رأيك في الدراسة والعمل هنا يا شيماء؟

- من أي جهة تقصدين؟

- هل الدراسة هنا مجدية للطالب.. هل تعود عليه بشيء.. هل تنهض بالعقول كما نأمل؟

تنهدت شيماء، وقالت:

- لا أكتمك سرا يا صديقتي.. العدد الكبير في الفصل الواحد، يطيح بتركيز أي معلم، بل ويفقد سيطرة المعلم على الفصل، وخصوصا أن هؤلاء في حاجة إلى معاملة خاصة.. غير أن الإمكانيات البسيطة التي هنا، لا تساعدنا للنهوض بعقولهم.

ربتت ياسمين على كتف شيماء مبتسمة، وشكرتها على هذا الحوار، ثم طلبت منها أن تسمح لوائل بالخروج من المدرسة الآن.

تعلق وائل بذراع صديقته ياسمين، وسار يقفز بساقه العرجاء في الهواء، فرحا لأنه خرج قبل زملائه من المدرسة. حتى أنه قال لها:

- ماذا لو تأتين كل يوم لتأخذينني من المدرسة؟.

اصطنعت الدهشة، وسألته:

- لماذا.. ألم تحب المدرسة؟

- لا.. لم يكن لي فيها أصدقاء مثلك.

ضغطت بذراعها على ذراعه، وقالت:

- سوف نقضي معا أكثر ساعات اليوم يا وائل.

استقلت ياسمين ووائل ووالدته إحدى عربات الأجرة، وطلبت من السائق الذهاب بهما إلى مركز الدكتور "باسم"، والذي تعمل به ياسمين. يتكون مركز الدكتور باسم من مبنى كبير، به كل تخصصات الإعاقة، سواء عقلية أو حركية، وقسم للعلاج الطبيعي. في الدور الثاني استأذنت للدخول على الدكتور، ومعها وائل ووالدته. رحب بهم، ثم قالت ياسمين:

- هذا صديقي وائل الذي حدثتك عنه يا دكتور.

سلم عليه، وقال:

- هل تقبلني صديقا لك يا وائل؟

ابتسم وائل، وطأطأ رأسه نحو الأرض خجلا، فقال الدكتور باسم:

- هل أنت رجل أم لا؟.

قال وائل بصوت خفيض:

- نعم.. أنا رجل.
- لماذا لم تسلم عليّ؟

قام وائل، وسلم عليه، فأمسك الدكتور كفه، وتحسس أطرافه، ثم طلب منه أن يحركها.

هز الطبيب رأسه، ثم فتح فمه فجأة، كأنه تذكر شيئا، وسأله:

- كيف حال أصدقائي الأرانب؟

تعجب وائل، وسأل الطبيب:

- هل تعرفهم؟
- نعم.. كنت أذهب عند البائع كل يوم، وأطعمهم.

قهقه وائل، وتلاشى منه الخجل، وقال أنه يطعمهما كل صباح مع صديقته

رحمة، ويقدم لهما العشاء كل ليلة. هلل الطبيب فرحا، وأوصاه أن يعتني بهما، ثم سأله:

- من صديقك الذي تحبه يا وائل؟

ابتسم وائل وقال:

- منعم.

- منعم فقط؟

- ونرجس وسوسنة وياسمين.

- وماذا عن ماما؟

- أحبها.. لكن أنا غضبان منها.

- لماذا؟

- لأنها تترك حسام يسخر مني، وتخاف من جدتي وعمي عطية.

التفت إلى ياسمين، وطلب منها أن تأخذ وائل، وتترك له والدته بعض الوقت. ففعلت ياسمين، ثم قال:

- احكي لي يا أم وائل بالتفصيل عن ولدك، منذ أيامه الأولى حتى الآن.

اعتدلت في جلستها على المقعد، وقالت:

"لم يظهر على وائل شيء في أيامه الأولى، وعندما بلغ الثانية من عمره، لاحظنا أن ساقه اليسرى أقصر قليلا من اليمنى، واعوجاج بسيط في أصابعه الثلاثة (الوسطى والبنصر والخنصر) في ذراعه اليسرى، مما أحزننا. لكن عزاءنا كان في إدراكه الطبيعي، رغم ثقل خفيف في النطق، الذي ظهر عليه بعد ذلك، ويأتي بفأفأة وثأثأة حين يكون مضطربا. بدأنا رحلة العلاج الطبيعي، واستجاب له بشكل ملحوظ. وحين مرض والده انشغلت عنه بعض الوقت، ثم انشغلت عنه أكثر بعد وفاة والده. انتقلنا للعيش مع جدته وعمه عطية وزوجته، وتركته في رعايتهم، لانشغالي بإدارة محل تجاري، وتكفل عمه بالذهاب به إلى المدرسة والعودة منها. حاولت أن أسند إدارة المتجر إلى أحد الموظفين، لأتفرغ لولدي ورعايته، لأنني لم أره إلا ساعة قبل النوم، وكثيرا أعود وهو

نائم. ولكن جدته وعمه أصروا على رعايته، وتفرغي لإدارة المتجر. لاحظت أن ولدي تغير كثيرا. أصبح انطوائيا، لم أهتم أول الأمر، وظننت أنه غاضب مني، لأنني أغيب عنه طوال النهار. حتى فوجئت برسوب وائل في المرحلة الخامسة، جن جنوني، وقررت أن أتفرغ لولدي، حتى أعود به إلى مستواه الطبيعي في الدراسة. وقرر عطية أن يأتي بعمال وموظفين من طرفه لإدارة المتجر. في بيت جدته، رأيت الخوف في عين ولدي، رأيته يجلس هادئا مستكينا في ركن من البيت، لم يبرحه إلا إذا أمرته جدته أو عمه، بنظرة قاسية وإشارة إصبع. لم يكن الطفل المتحرك الذي يعبث بالأشياء مثل كل الأطفال، أو كسابق عهده. ماتت فيه الحركة.. بل ماتت فيه الطفولة.. وانفطر قلبي أكثر عندما رأيت حسام يعتدي عليه بالضرب، وينعته بالمتخلف الأهطل، وولدي مستسلم تماما لضرباته، ولم يرد بكلمة واحدة.

وهنا قررت أن أهرب بولدي من هذه البيئة القاسية، البيئة التي اغتالت براءته، وقيدت حركته، وجعلت منه طفلا جبانا يخاف من إشارة هذه ونظرة هذا، قررت أن أعود بولدي إلى منزلنا، ونعيش معا، لأعيد إليه طفولته وبراءته. لكن عمه لم يتركنا، بدأ في مضايقاتنا، ومطاردتي أينما ذهبت. ثم عرض عليّ الزواج، بحجة أنه يريد الحفاظ عليّ أنا وولدي. والحقيقة هو لا يريد إلا الثروة التي تركها زوجي ميراثا لولدي. وعندما رفضت الزواج منه، ساق إلى عدد من الرجال، يطلبونني للزواج، كل هذا محاولة منه لتنتقل إليه الوصاية على أموال ولدي، ويصبح له حق التصرف فيها بألاعيبه الملتوية، ويتم مشروعه الذي يحلم به، ليؤمن مستقبل ولده الوحيد حسام.

سكتت عبير برهة، أخذت فيها شهيقا طويلا. فسألها الطبيب:

- ما هو المشروع الذي يحلم به عطية؟
- يريد بناء برج سكني كبير، ولن يتم ذلك إلا إذا ضم قطعة أرض ملك لولدي إلى قطعته، ليكون البرج على مساحة كبيرة، تدر ربحا يؤمن به مستقبل ولده.
- وماذا عن ولدك؟

أطلقت عبير العنان لدموع كانت تحبسها، وقالت:

- يقولون أن ولدي متخلف وأنه لا حاجة له من الدنيا غير لقمة تسد جوعه وملبس يستر جسده

تنهد الطبيب بشدة، وزفر بغيظ، ثم طلب منها مواصلة الحديث، فقالت:

- وسط هذه المشاكل، لم أستطع النهوض بعقل ولدي، أو العودة به إلى طبيعته، فرسب السنة التالية أيضا، فنصحني البعض بتحويل مساره التعليمي، وإلحاقه بمدرسة التربية الفكرية. ومنذ أيام قليلة ظهر الأستاذ عبد المنعم وأسرته في حياة ولدي، شعرت أن هناك تغيرا ملموسا في شخصية وائل، وأنه على استعداد للاستجابة، حتى أتيت لك الآن.

تنهد الطبيب مرة أخرى، ولكنها كانت تنهيدة رضا هذه المرة، وقال مبتسما:

- وائل لم يكن متخلفا كما يقولون، بل هم أرادوا ذلك لشيء في نفوسهم.

أضاء الأمل في وجه عبير، واتسعت عيناها، لم تصدق أن ولدها سوف يعود إلى طبيعته.

استطرد الطبيب، وقال مبتسما:

- أتعرفين أن الله يحبك يا أم وائل!

- ...

- نعم يحبك.. لأنه ساق إليك الأستاذ عبد المنعم وأسرته، فهم على وعي وثقافة عالية، وسوف يمثلون لولدك قاعدة معرفية كبيرة، يخرج من خلالها إلى عالم الأسوياء.

أشرق وجه عبير بابتسامة رضا، لكن الطبيب استطرد قائلا:

- بشرط.

- ماذا؟

- عليك اتباع التعليمات التي سوف تمليها عليك الأستاذة ياسمين.

- لا أنكر أن وائل بدأ يعود للحياة منذ أن ظهر الأستاذ عبد المنعم وأسرته في حياته، وبدأ يشعر بالحب الذي كان يفتقده في عائلته.
- جميل جدا.

ضغط الطبيب الجرس، فدخلت ياسمين ووائل، فاستقبله الطبيب بابتسامة عريضة، وربت على كتفه، ثم اتجه إلى ياسمين، وطلب منها المرور بوائل على طبيب العلاج الطبيعي، والأقسام الأخرى بالمركز، مثل تقويم السلوك وغيرها، وسرعة إحضار كل التقارير، ليبدأ من اليوم برنامجا خاصا بوائل.

دارت به على أقسام المركز: قسم الإعاقة العقلية، ثم قسم الإعاقة الحركية، والسمعية، والبصرية، ومزدوجة (السمعية والبصرية معا)، ثم الإعاقة الحسية (أوتيزم أو التوحد).

ساعتان.. وكلما رأت ياسمين تقريرا، هللت فرحا، فتتفتح الآمال في قلب والدته أكثر، وأخيرا ذهبوا بالتقارير إلى الدكتور باسم، فعندما رآها، ابتسم وقال:

- أمامك تجربة حية يا ياسمين، تستطيعين الحصول بها على رسالة الماجستير، في البيئة وأثرها على ذوي الإعاقة.
- نعم يا دكتور.
- ما هي أول خطواتك مع وائل؟
- أول شيء.. التخلص من كل شيء سلبي في حياة وائل، حتى أنني أفكر في تغيير مساره التعليمي، وإعادته إلى مذاكرة الابتدائية من المنزل، وهذا بعدما رأيت التقارير التي تثبت أن مستوى إدراكه أعلى بكثير من مستوى مدارس التربية الفكرية، هذه المدارس أراها أكثر البيئات التي تعود بالسلب على عقول الأطفال، لعدم توافر الوسائل التعليمية بها، ولكثرة عدد التلاميذ في الفصل الواحد، وأيضا لعدم وجود المدرسين الأكفاء، مع استمراره في الذهاب إليها، حتى يظل على الارتباط بمجتمع الدراسة، والتنسيق مع مدير المدرسة، ومعلمة الفصل، لكي يكون وائل نموذجا لهذه الفئة.

انفرجت أسارير الطبيب أكثر، ونظر إلى أم وائل وقال:

- خطوة ممتازة جدا، ولكن سوف تكون أكثر إيجابية إذا ابتعد وائل عن السلبيات المؤثرة عليه في المنزل والعائلة.

هزت أم وائل رأسها. قالت ياسمين:

- من الناحية التعليمية والمعرفية، هو لا يحتاج كثيرا من المجهود، لأنني أرى استعداده التام للتعلم، ومن السهل استخراج شخصيته الكامنة في أعماقه.

- جميل جدا... وفقكم الله.

ثم التفت الطبيب إلى وائل، وقال له:

- أوصيك بأصدقائي الأعزاء.

ابتسم وائل، وانصرف يتأبط ذراع ياسمين، مع والدته بعدما أسرفت في كلمات الشكر والامتنان للدكتور باسم.

* * *

نظرت ياسمين إلى ساعة يدها، فكانت الرابعة بعد الظهر. قالت لوائل:

- هل أنت جائع مثلي يا صديقي؟

- نعم.. جائع جدا يا صديقتي.

- إذن.. تعال نذهب إلى مطعم أعرفه.

صاحت عبير ضاحكة:

- بمناسبة هذه الأخبار السعيدة، سوف أعزمكم على "حلة محشي" وديك رومي راقد في الثلاجة منذ يومين.

هلل وائل:

- نعم يا أمي.. أنا أحب الرومي و"المحشي".. هيا يا صديقتي.

ترددت ياسمين لحظة، ثم وافقت على الذهاب معهما إلى المنزل، فهي تريد

أن تدخل عالم وائل كله، تريد أن تعرف التفاصيل الصغيرة والكبيرة في حياته، وتملأ حياته وأشياءه، حتى يتقبل منها كل ما تمليه عليه.

* * *

عند الباب الخارجي للمنزل، قال وائل لصديقته ياسمين:

- قبل أن ندخل البيت، لا بد أن نطمئن على أصدقائنا.

تنبهت ياسمين، وأدركت أنه يقصد الأرانب، فابتسمت وقالت:

- نعم.. نعم.. أنا أحبهم جدا.

وصعد الثلاثة فوق الدور الثالث. المكان واسع بشكل ملحوظ، أسواره عالية. في الركن الأخير كان بيت الأرانب. هرول وائل إليه، وهو يشد ياسمين من ذراعها، وهي تتضاحك، تحاول أن تمهله، خلفهما والدته، تجر جسدها النحيل وهي تلهث.

هللت ياسمين حين رأت الأرنبة سوسنة وصديقها وائل، يجريان في بيتهما الصغير

مد وائل يده، وأمسك واحدا بعد الآخر، وأخرجهما من بيتهما، فانطلقا على السطح الواسع، تطاردهما ضحكات وائل العالية، وابتسامة ياسمين ووالدته لما يفعل، ثم وضع لهما بعضا من العلف.

انتبهت ياسمين إلى دراجة مركونة هناك، فسألته:

- هل تستطيع أن تقود الدراجة يا صديقي؟

رد عليها في نبرة يأس:

- اشترتها لي أمي، ولم تعلمني كيف أستخدمها.

اقتربت منها ياسمين، رأت أنها دراجة غالية، تراكم عليها بعض الصدأ، تحتاج إلى إصلاحات بسيطة، وتعود إلى رونقها من جديد، فسحبتها وهما في طريقهما إلى المسكن في الدور الثالث، وقالت:

- سوف أعلمك أنا يا صديقي.

هلل فرحا، وساعدها في سحب الدراجة إلى الدور الثالث. المسكن واسع، يتكون من أربع حجرات وصالة، به أثاث فاخر، مازال جديدا.

سرعان ما انشغلت عبير في المطبخ بتجهيز الغداء، تاركة وائل مع ياسمين في البهو الواسع

- تعال نلعب معا يا صديقي.

هكذا قالت ياسمين.

- ماذا نلعب يا صديقتي؟

- أليس لديك ألعاب هنا؟.

- عندي كثير جدا.

- هاتها.

أسرع وائل إلى "البلكونة"، ثم جاء يسحب صندوقا خشبيا كبيرا بعض الشيء؛ فسألته ياسمين:

- ما هذا يا صديقي؟

- هذه كل ألعابي.

تفحصت محتويات الصندوق، فإذا به ألعاب كثيرة، بل وغالية الثمن، وأكثرها مازال في علبته. أدركت ياسمين أن وائل لم يشاركه أحد أي لعبة، وأن والدته اكتفت أن تشتري له الألعاب فقط، وانشغلت بأحزانها ومشاكلها. هزت رأسها في أسف، وقالت في نفسها: "ماذا يفيد الذهب إن لم نتزين به، كم أنت مسكين يا صديقي".. قررت ياسمين أن تبذل قصارى جهدها، وتعيش معه طفولته وصباه بقدر ما تستطيع، قررت أن تسعد وائل بكل ما تملك.

قال في نبرة مملوءة بالانكسار، كأنه قرأ ما يدور في عقلها:

- ماما لا تلعب معي.

التفتت إليه، ولمست قلبه بابتسامة حانية، ومسدت بكفها على شعره الناعم، وقالت:

- بعد الغداء، سوف نلعب كثيرا يا صديقي.

- حقا.

- حقا.. أرني ما عندك من قصص ومجلات.

سرعان ما أحضر وائل المجلات من حجرته، وتصفح واحدة منها، حتى وقف على صورة أرنب حزين على شاطئ بحيرة، حوله عدد من الأرانب، وعدد من البط، الجميع يضحك إلا هذا الأرنب. قدم المجلة إلى ياسمين، وقال لها:

- أخبريني يا صديقتي.. لماذا يقف هذا الأرنب حزينا؟

نظرت ياسمين إلى الصفحة، فأعجبها ملاحظته في الصورة، ثم قالت:

- تعال نقرأ معا يا صديقي..

جلس أمامها على الأرض، وراح يسمع لها وهي تقرأ القصة، قائلة:

"على شاطئ البحيرة الصغيرة، كانت أسراب البط تلهو كعادتها. منهم من يجري فاردا جناحيه فرحا بأشعة الشمس الدافئة، ومنهم من يعوم في الماء يعبر البحيرة يمينا ويسارا، وسرب طويل من صغار البط يعوم خلف أمه فرحا هو الآخر بالماء.

كان الأرنب يقف على الشاطئ، يشاهد البط وهو يمرح ويعوم، دون أن يغرق في الماء، حتى صغار البط لا تخشى من الغرق. ضحك بصوت عال، فانتبه البط، وسألهن ساخرا:

- ماذا تفعلون أيها الضعفاء؟

اقتربت بطة من الأرنب، وقالت:

- كما ترى.. نلعب ونعوم في الماء.

- أنا أستطيع أن أعوم أنا الآخر.

ضحكت البطة ساخرة، وقالت:

- لا تستطيع أن تعوم أيها المغرور.

- كيف.. وأنا أقوى منكم وأكبر حجما.

- إذن.. أرنا موهبتك في العوم.

ونادت البطة على باقي زميلاتها، كما نادت على عدد من الأرانب كان يقف بعيدا عن الماء. وجاء الجميع، وسألوها:

- ماذا أيتها البطة؟

قالت وهي تشير إلى الأرنب المغرور:

- تعالوا شاهدوا الأرنب، وهو يعوم في الماء.

تعجب الجميع، وقالوا:

- لن يستطيع طبعا.

لكن الأرنب زاد في غروره، وتحدى الجميع، وقال:

- أنا أستطيع العوم.

ورجع الأرنب للخلف عدة خطوات، استعدادا للقفز في الماء

وهنا صاح وائل:

- سوف يغرق هذا المغرور، الأرانب لا تعوم.

ابتسمت ياسمين، وقالت:

- حسنا يا وائل.. الأرانب لا تعوم.

ثم واصلت ياسمين القراءة، وقالت:

"وقفز الأرنب قفزة قوية في الماء، وسرعان ما شعر بالغرق، فصرخ، وقال: أنقذوني.. أنقذوني.. سوف أغرق. أسرع عدد من البط، ونزلت إحداهن بجسدها تحت الأرنب في الماء، وحملته على ظهرها حتى الشاطئ. وقف الأرنب حزينا منكس الرأس، بينما الجميع يضحك ساخرا من غروره. اقترب منه أحد أصدقائه الأرانب، وقال:

- أرأيت يا صديقي.. كاد غرورك أن يقتلك.

نظر إليه، وقال في نبرات منكسرة:

- الآن تعلمت الدرس.. وعرفت أن البط أفضل مني.

ربتت بطة بجناحيها على الأرنب في تودد، وقالت:

- ليس هناك مخلوق أفضل من الآخر، الفضل بالعمل والكفاح، وكل منا يتميز بشيء خلقه الله له، فأنتم يا معشر الأرانب تلدون وتتميزون بالسرعة والرشاقة، ونحن البط نبيض ونعوم.

ابتسم الأرنب، وقال:

- الآن.. عرفت أن لكل مخلوق عمل يقوم به، وعليه أن يتقنه، لتستمر الحياة.. شكرا لكم صديقتي البطة.

كانت ياسمين تراقب وائل أثناء قراءتها للقصة، لاحظت انتباهه مع كل كلمة، يسلط نظراته على شفتيها، ينتظر الكلمة بعد الكلمة، يحبس أنفاسه تارة، ويتنهد أخرى، وتتسع عيناه وتضيق، حسب الموقف، تشعر بصراخ في صدره، كأنه يقول للأرنب المغرور "لا تفعل.. سوف تغرق". وعندما انتهت ياسمين من سرد القصة، تنهد وائل طويلا، ثم ضحك عاليا، وضرب كفا بآخر، ثم قال:

- الأرنب كاد أن يغرق.. حكاية جميلة.

- ماذا تعلمت منها يا وائل؟

- تعلمت منها أن لا أفعل شيئا لا أعرفه، وإذا أردت فعله، عليّ أن أتعلم أولا، لأتجنب الخطر.

علا صوت ياسمين بالتهليل، واحتضنت رأسه، فجاءت عبير من المطبخ، تستطلع الأمر، وقالت:

- ماذا يا أستاذة.

خليط من دموع الفرح والحزن معا، فرح لأن وائل أدرك المغزى العميق من

القصة، رغم أنها القراءة الأولى، وحزن لأن عائلته كانت تعامله على أنه من ذوي الاحتياجات الخاصة، رغم أن ذكاءه يفوق عمره.

نظرت ياسمين إلى عبير نظرات عتاب واضحة، وقالت في أسى:

- سامحكم الله يا أم وائل.

أدركت أم وائل ما تقصده ياسمين، نكست رأسها في الأرض أسفا، ثم عادت إلى مطبخها.

قالت ياسمين:

- ماذا لو ذهبنا لإصلاح العجلة الآن.

هلل وائل، وقال:

- هيا يا صديقتي.. عمي رجب العجلاتي قريب منا.

وساعدها في سحب الدراجة إلى العم رجب، ولم يكن فيها الكثير من الإصلاحات، ولذلك.. لم يستغرق وقتا طويلا في إعادتها كما كانت من قبل.

وبعد الغداء، صعد الثلاثة فوق السطح مرة أخرى، وراحت ياسمين تعلمه ركوب الدراجة.

لاحظت ياسمين أن وائل لديه رغبة جبارة في التعليم، واستيعاب سريع لكل ما يقال له، وجرأة الواثق من إمكانياته.. كأنه يتسابق مع الزمن، يريد أن يعوض سنواته الماضية.

ولذلك لم يستغرق تعليمه كثيرا، وسط ذهول والدته التي كانت تقف على الجانب، بكت من شدة فرحتها، لم تصدق أن ولدها يمتلك كل هذه الرغبة في الحياة.

وعند الساعة السابعة، انصرفت ياسمين، بعد أن ودعت أم وائل وولدها، على أمل اللقاء في الغد، للذهاب إلى أقرب مدرسة، ليقيد اسمه ضمن طلبة المنازل، ثم شراء الكتب الخاصة بالمرحلة الأخيرة من الابتدائية، لتبدأ معه المذاكرة.

الخروج من قوقعة الخوف

رغم تعب النهار، إلا أن عبير تمتلئ بسعادة طاغية، طالما أن هناك أمل تعيش عليه، أمل إخراج وائل من قوقعته التي سجنته فيها بخوفها وصمتها.

بعد انصراف ياسمين، تنهدت عبير طويلا.. أخرجت كل ما كان يؤلمها في هذه التنهيدة، وزرعت مكانها أملا في الحياة بعد أن كانت تفقدها.

ابتسمت في رضا تام، ألقت جسدها على مقعد في البهو، ثم جذبت ولدها الواقف أمامها، احتضنته بشدة، كأنها لم تحضنه من قبل، وكأنما تطلب منه الاستغفار لما مضى، وتأمل فيه مستقبلا أفضل مما كان يظنه فيه عمه وجدته. أسلم رأسه لصدرها، كان في حاجة إلى الاحتواء هو الآخر، بعد هذا اليوم الحافل بالآمال القادمة، وراح يستمرئ اللحظات السعيدة التي قضاها في صحبة ياسمين. أما عبير؛ فأسلمت رأسها لذكريات الأيام القليلة الماضية. تقارن حال ولدها الآن، بحالها قبل معرفة عبد المنعم وأسرته. هناك فرق ملموس.. هو الآن صبي يتحرك ويسأل ويضحك، وذكي أيضا.

أغمضت عينيها.. تشعر بارتياح عميق.. وائل سوف يكون سندها حين تكبر، ويكون عوضا عن والده، وسوف يكبر ويتزوج.. ويكون لها أحفاد تلاعبهم وتلاطفهم.

وبينما عبير في أحلامها هذه، فإذا بخيال عطية يطوف برأسها فجأة، وسؤال يفرض نفسه: "ماذا يا ترى سيفعل عطية الآن، بعد أن أخبره الجواسيس عن خطواتي؟.. لا شك أنه يتقلب على جمر من القلق، فهو لا ينام ليله إلا إذا عرف بكل شيء عني، أعرف أنه الآن يستشيط غضبا، لهذا التقدم الذي عليه وائل".

وفجأة هزت ولدها.. أيقظته من شروده مع حكاية الأرنب المغرور التي قصتها له ياسمين. استنكر هزتها بهزة من رأسه، يريد أن يعود إلى الأرنب المغرور. لكنها قالت له:

- ما رأيك يا صديقي لو ذهبنا إلى متجر المنسوجات الآن؟.

تأفف بتنهيدة طويلة، وقال: لا.

تعجبت عبير.. ما هذا؟ لماذا زهد ولدها في المكان الذي كان يحبه، وكان ينتظر اللحظة التي يجلس فيها أمامه، ليشاهد المارة في رواحهم ومجيئهم، بل زهد في كل شيء هناك، رغم أنهم كانوا دائما ما يلاطفونه ويلاعبونه مثل عبد المنعم وأسرته.

ابتسمت عبير، وتذكرت كلمة عبد المنعم لها: "إنه الحب. كل شيء يكون بالحب. حتى الكلمات"

ثم قامت من جلستها، أمسكت "جاكيت" من الجلد، حاولت أن تضعه على جسده، وهي تسوق إليه الإغراءات مرة، وتهادنه أخرى، ولكنه رفض الذهاب معها، حتى فاض بها الكيل، فقالت بغضب:

- أنا تعبت منك.

قال بجرأة:

- صديقي عبد المنعم قال لي.. لا تفعل شيئا لا تحبه، كذلك صديقتي ياسمين.
- أنا مثلك.. لا أريد الذهاب إلى هناك، أو رؤية أحد من عائلة والدك، ولكن..

سكتت عبير؛ فهي تدرك أن ولدها لم يع من كلماتها شيئا، لم يدرك أنها تريد ألا تستزيد غضب عمه عطية بغيابها عن أعين جواسيسه، حتى لا يزيد من مراقبتها، ويعرف بأمر الشراكة التي بينها وبين عبد المنعم. تنهدت، ثم سألته بصوت هادئ:

- لماذا لا تريد المجئ معي.. هل تخشى أن يكون حسام هناك؟.

ابتسامة ساخرة ارتسمت على ملامحه، ثم غضب شديد. وقال في تحد:

- أنا قوي.. وأستطيع أن أدافع عن نفسي.. هكذا قالت لي صديقتي ياسمين.

سكتت عبير.. تردد سؤال في رأسها: "هل عبد المنعم وأسرته على حق.. أم سيجلبون لنا المتاعب مع عمك يا وائل؟"

وذهب وائل هو الآخر، يتخيل كيف يدافع عن نفسه إذا سخر منه "حسام"، أو حاول الاحتكاك به، تدور برأسه حركات الكاراتيه الأولية التي تعلمها من المدرب في النادي. وبينما هما كذلك.. فإذا برنين جرس الباب يقطع الصمت، فقامت عبير إلى الباب، وإذا بوالدة زوجها، تتوكأ على عصاها، ويدها الأخرى تمسك بحسام، وخلفها يدخل عطية بابتسامته الكالحة ووجهه السمج.

كلمات العتاب والتأنيب والتوبيخ تتوالى من فم المرأة العجوز، لم تعط لها الفرصة أن تقول شيئا، كما لم تعط لعطية أن يقول ما يقلق صدره عن غيابها طوال الأيام الماضية. وأخيرا.. جلست على أريكة في البهو الواسع، وجلس عطية بجوارها، وبينهما "حسام".

وائل يجلس بجوار والدته، وجها لوجه مع حسام.. ماذا سيفعل معه؟.. صديقته ياسمين قالت له أنت قوي، ويجب أن تدافع عن نفسك.. وكذلك صديقه منعم، قال له أنت رجل، والرجال لا يخافون.

هكذا استحضر وائل كلمات ياسمين وروح صديقه منعم، فامتلأ صدره بالهواء، ارتسم على وجهه الغضب، وجلس متحفزا، ينتظر اللحظة التي يتفوه فيها حسام بكلمة، أو تصدر منه حركة. وقتها سوف يدفعه بقوة أكبر من المرة السابقة، سوف يطرحه أرضا، ويلقنه درسا، يمحو به سنوات انكسار وخضوع وخنوع مترسب في الأعماق.

لحظات من الصمت، مرت فيها نظرات العجوز على الأشياء حولها، ثم إلى السقف.. ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجهها، ثم عادت تسألها في لهجة شديدة:

- أين كنت في الأيام الماضية.. ولماذا لم تردي على التليفون؟

لم تعرف عبير ماذا تقول؛ فسكتت برهة. في هذه اللحظة انطفأت جذوة الشجاعة التي كانت تشتعل في نفس وائل، وتلاشت روح منعم من أعماقه، ورقدت كلمات ياسمين.. انطفأت ملامحه، وعاد قلبه إلى الانكسار والخضوع، وجلس ينتظر ما يأتي به حسام من سخرية، وأخيرا تنهدت عبير، وقالت في هدوء:

- ماذا تريدون منا يا حماتي؟

لاحقها عطية بسؤال ثلجي الحروف، وقال:

- نريد أن نعرف أين كنت.. ولماذا لم تذهبا إلى المتجر منذ أيام؟

انطلقت أسئلة كثيرة من المرأة العجوز وابنها عطية. لم تعرف عبير ترتيب الإجابات.

رأت أن الهجوم خير وسيلة للدفاع، ولا بد من كشف ألاعيبهم الخفية، فليس بعد الموت موت.

قالت ببرود شديد:

- العيب في جواسيسك يا عطية.. يبدو أن العمى قد أصابهم.

انتفض عطية في مجلسه، استشاط غضبا، وكذلك والدته، التي اندفعت قائلة:

- جواسيس!!. ماذا تقولين؟

علا صوت عبير قليلا، وقالت:

- الجواسيس الذين يحيطون بي كلما ذهبت، والذين عيَّنهم ابنك لينقلوا لكم كل شيء عني وعن المتجر، وما يفعلونه بالأرباح.

أطاحت عبير بخجلها في الهواء، خرجت عن خضوعها وسكوتها الذي طال، فأسقطت الأقنعة التي كان يستتر بها عطية ووالدته، فألجمتهما المفاجأة، لم يعرفا ماذا يقولان الآن. وليس هذا فحسب.. لقد أعاد صوتها المرتفع ولدها إلى نفسه، اشتعلت فيه جذوة الشجاعة من جديد، ورنت كلمات ياسمين في أذنه كطبول الحرب، وتجسد صديقه منعم أمام عينيه، فانتفضت جوارحه، وعاد التحفز والاستعداد يرتسم على وجهه، ينظر إلى حسام بغضب.

لحظات من الصمت.. ابتلعت المرأة العجوز ريقها، ثم قالت بنبرة أقل حدة:

- وهل عيب أن نراقبك لنحافظ عليك أنت وولدك، وعلى أموالكما؟

- لست قاصرا.. وهل ما تفعلونه محافظة علينا كما تدعون؟
- ما هو إذن يا زوجة ابني؟
- أنتم تعرفون.

يمتلئ عطية دهشة كلما سمع إجابات عبير، يتساءل بينه وبين نفسه: "من أين أتت بهذه الجرأة في الرد؟".. لم يعرف ماذا يقول، ولذلك أراد أن يغير مجرى الحديث، حتى تهديء عبير من حدتها. فنظر إلى "وائل" الذي كان يجلس قبالتهم بجوار والدته، فرآه يسلط نظراته الحادة في وجه ولده حسام، يرتسم على وجهه التحفز والغضب.

حسام ينكمش في جلسته على غير عادته، مما أثار غضب عطية أكثر، فقال:

- لماذا تنظر هكذا إلى حسام يا ولد؟.

لم يتوقع عطية الإجابة وطريقتها التي جاء بها وائل، لقد قال بجرأة غير معهودة:

- ولماذا ينظر هو إليّ هكذا؟

سرعان ما لفت عبير ذراعها حول عنق ولدها، وربتت على صدره، تهديء من انفعاله، ولم تعرف أن لفة ذراعها حول عنقه، زادته جرأة وقوة وصلابة، كأنه قرأ دواخلها، وعرف أنها تبارك جرأته في القول.

كانت دهشة عطية ووالدته لا حدود لها، لقد أزعجهما هذا الرد الجرئ من وائل، بل وأغضبهما إلى حد كبير، حتى قالت جدته:

- حتى أنت أيها الأهطل.. تعلمت الرد على عمك.

قالت عبير في غضب:

- وائل رجل.. وليس أهطل كما تقولين.. وكما تريدون.

تفحصت المرأة وجه وائل. انتفضت دواخلها.. لقد رأت شخصا آخر غير حفيدها الذي اعتادت عليه. رأت قسمات ولدها الراحل عبد الله.. هذا غضبه، وذاك صمته، حتى نظراته. يا إلهي.. هل هذا حفيدها حقا.. أم توأم ولدها عبد الله؟.. موجة

من الحنين اجتاحت أوصالها، هتفت باسم ولدها "عبد الله".. بسطت يدها إلى وائل في تودد وحنان، واستطردت في نبرات هادئة غير واعية: "تعال يا عبد الله".

التف إليها عطية، وهو يضغط على كتفها، فانتبهت، ومسحت دمعة حنين جاءت من أعماقها، ثم قامت في هدوء، تلملم شوقها إلى ولدها الراحل، فتبعها عطية وحسام في صمت.

وعند الباب التفتت إلى عبير وقالت في نبرة هادئة:

- يجب أن تعرفي أننا نخاف عليك أنت وولدك.

ابتسامة ساخرة، جرت على وجه عبير، وقالت:

- تخافون من ماذا يا حماتي؟.

- أنت مازلت صغيرة، والرجال لا أمان لهم.

- لا تخافي يا حماتي.

زلزلت عبير بإجابتها القوية كل صلب تحت قدم عطية. في الوقت الذي تعلقت فيه نظرات المرأة العجوز بوجه حفيدها، بل تعلق قلبها، وتمنت أن تأخذه في أحضانها، لكن عطية سحبها في شيء من الغضب.

وعندما أغلق الباب، صاح وائل.. وضرب يد بأخرى فرحا، وهو يقول:

- لقد كان خائفا مني.. فجلس دون أن يقول شيئا.. لأنه عرف أنني قوي.

احتضنته عبير وهي تضحك، وقالت:

- نعم يا صديقي.. أنت قوي، وأعجبني ردك على والده.

- وأنت أيضا يا صديقتي. صوتك كان قويا، فلم نخف هذه المرة.

ضمته عبير إلى صدرها أكثر، وقالت:

- لا خوف بعد اليوم يا وائل.

ما أحلى الشعور بالنصر، وما أجمل الخروج من قوقعة الخوف.. هكذا كان

يشعر وائل ووالدته، حتى أنهما دارا في البهو عدة دورات، تعبيرا عن سعادتهما.

ثم توقفت عبير، فكرت لحظة، هناك شيء آخر طرأ بعقلها فجأة. خطفت جاكيت وائل، وقالت:

- البس بسرعة.
- لماذا؟
- سوف تعرف الآن.
- صديقتي ياسمين قالت لي أنني أستطيع أن أرتدي ملابسي دون مساعدتك.

قبلته بحنان شديد، وقالت في نفسها: "هذا ما كان يجب أن تتعلمه وتفعله منذ سنوات.. لكن أنا التي تأخرت عليك.. سامحني يا وائل".

ارتدى الجاكيت دون مساعدة والدته، وسارا معا في خطوات سريعة، كأنها تريد أن تلحق شيئا. في الشارع أشارت إلى عربة أجرة، قصدت بها متجر المنسوجات. سألها وائل:

- لماذا الآن؟.. أنا لا أحب أن أذهب إلى هناك كما قلت لك.

التفت إليه وقالت مبتسمة:

- يجب أن نفعل شيئا، لم نفعله منذ زمن.

لم تخبره عما يدور في رأسها، وانشغل هو بمراقبة لافتات المحلات، والأضواء المبهرة، بينما هي راحت ترتب بعقلها ما تفعله الآن. ولم تكن إلا دقائق حتى نزلا من العربة أمام محل المنسوجات.

لاحظ الأستاذ "نوفل" المحاسب، وأيضا العمال، ملامح الجدية ترتسم على وجه عبير، حتى لهجتها، حين طلبت منه قائلة:

- لو سمحت أستاذ نوفل.. أعطني الدفاتر والفواتير.

تعجب نوفل، هذه أول مرة تطلب مراجعة الفواتير بنفسها. تلكأ قليلا، ثم

أمسك بالهاتف، فسألته في لهجة شديدة بعض الشيء:

- لماذا تمسك الهاتف؟.

قال في لهجة هادئة:

- أطلب الأستاذ عطية، ليحضر معنا الآن.

- أنا صاحبة المحل، ولا أحد غيري.

أمسكت بالهاتف، وضعته أمامها، ثم أخرج نوفل "سجلا" كبيرا من درج جانبي، وعدد من دفاتر الفواتير. أمسكت دفتر فواتير، ونظرت إليه، وعلى وجهها ابتسامة ساخرة، ثم سألته:

- هل هذه هي الفواتير التي تشتري بها البضاعة من المحلة الكبرى؟

ارتبك "نوفل"، لم يتوقع أن تسأله عبير هذا السؤال. حاول أن يداري احمرار وجهه، ويمسك تقلصات قسماته.. فشل في ابتلاع ريقه الجاف، ثم قال في حشرجة:

- نعم.. نعم هي الفواتير.

هزت رأسها، تحاول أن تصدق، رغم يقينها بأنه يكذب. ثم انكبت على الأوراق، تجمع وتطرح على الآلة الحاسبة، وتكتب أنواع وأعداد البضاعة، في ورقة أمامها، وهو يتأملها.. قلبه ينتفض، رغم يقينه أن مثلها، أو غيرها، لا يستطيع أن يمسك عليه مخالفة واحدة، فهو يحترف تزوير الفواتير، ولذلك اختاره عطية لهذا المكان.

لم يكن العمال الثلاثة الموجودون في المتجر، أقل حرجا من نوفل، فهم على دراية كاملة بالانحرافات المالية، والتي يرأسها عطية شقيق زوجها، ونوفل المحاسب. لكنهم سكتوا، مقابل نذر قليل يجود به عطية عليهم، على شكل مكافآت وحوافز، غير الرواتب الشهرية العالية.

وأخيرا.. رفعت عبير رأسها، قامت من مقعدها، وفي يدها الورقة التي كتبتها. أشارت إلى نوفل أن يتبعها إلى المخزن. أدرك أنها تريد أن تقوم بعملية "جرد" كاملة

لمحتويات المتجر.

في زاوية المتجر من الداخل، باب صغير، يؤدي إلى مخزن واسع. أشعلت عبير المصباح الكهربائي، نظرت إلى البضاعة، ثم إلى الورقة التي في يدها، وطلبت من نوفل أن يعد كل صنف على حدة. وقفت تراقبه وهو يعد رصات الفوط بأنواعها وأحجامها، والبشاكير والكوفرتات، ثم أطقم السراير المشغولة والمطبوعة بأنواعها التسعة، والستائر. كتبت أعداد كل ما يوجد في المخزن، ثم خرجت إلى المتجر، وأحصت البضاعة الموجودة على الأرفف.

وائل لم يجلس على باب المتجر كعادته، بل جلس بجوار والدته على المكتب، وراح يراقب كل شيء، ويعدل من وضع الفواتير والسجلات أمامها.

ثم عادت وجلست على المكتب، وأخرجت سجل المرتبات الخاص بالعمال، وأعطت كل منهم راتبه، رغم أن الشهر لم ينته بعد، وقالت:

- سوف نقوم بتجديد المتجر، وعمل بعض الدهانات فيه.

قال أحدهم:

- وماذا عنا طوال فترة التجديد؟

قالت في لهجة هادئة:

- من يجد منكم عملا آخر فليلحق به.

كانت كلماتها واضحة، استغنت عنهم جميعا، نكسوا رؤوسهم حزنا على ضياع راتب شهري لم يجده أحدهم في أي مكان آخر، ثم رحلوا.

في هذه اللحظة، دخل السائق عم عبده، بعد أن أوقف التاكسي أمام المتجر. ابتسمت بهدوء، وقالت بصوت خفي: "يبدو أن الظروف مهيأة للخلاص من الجميع في وقت واحد".

هو رجل فوق الستين من عمره، ويتقاضى معاشا من التأمينات الاجتماعية، ويعمل سائقا لعربة التاكسي التي تركها زوجها لولده وائل. قال لها:

- أين كنتم في الأيام الماضية.. انشغلت عليكم؟.

ابتسمت عبير، ولم تجبه على سؤاله، ثم ناولته مبلغا من النقود، وقالت:

- اشتر لي ثلاثة أقفال كبيرة يا عم عبده.

كاد يسألها عن السبب، وعن العمال أين ذهبوا.. لكنها قالت:

– بسرعة يا عم عبده.

هز رأسه، وذهب إلى المتجر المجاور، أتى بالأقفال الثلاثة، فرآها قد أطفأت الأنوار، وأغلقت الباب، وأشرفت بنفسها مع وائل، على وضع الأقفال في مكانها، ثم اتخذت مكانها في المقعد الأخير بالتاكسي، وائل لم يجلس بجوار السائق هذه المرة، رفض أن تجلس والدته وحدها، كأنه يقول لها: أنا بجوارك. فلفته بذراعها، وكافأته بعدد من القبلات.

طوال الطريق.. التزمت الصمت. تفكر: ماذا تفعل مع هذا الرجل العجوز؟

وعند المنزل، أعطاها إيراد التاكسي خلال الأيام الماضية. نزلت عبير وولدها وائل، وقالت:

- لو سمحت يا عم عبده.. أدخل العربة في "الجراج" عندنا.

تعجب الرجل، هو دائما ما يحتفظ بالعربة في "جراج" بمنزله، ويأخذ إيجارا مقابل ذلك.

سألها في دهشة:

- لماذا؟

- أريدها هنا الليلة.

خضع لأمرها، وفتحت هي "الجراج"، ودخل بالعربة، ثم قالت له وهي تغلق الباب:

- انتظر يا عم عبده.

ثم أخرجت مبلغا من النقود، وقالت له:

- هذا أجر الشهر، وأعطني مفاتيح العربة.

نظر إليها، وقال:

- لماذا يا أم وائل؟

- لقد قررت أن أبيعها.. لست في حاجة إليها.

- هل الأستاذ عطية يعرف بهذا الأمر؟.

سكتت برهة، ثم خطفت المفاتيح بغيظ مكتوم، وقالت:

- عطية يعرف أو لا يعرف.. لا شأن له بهذا؟

مضى إلى حال سبيله، وهو يجر انكسارا في قلبه، يلوم نفسه لأنه كان من جواسيس عطية.

عندما دخلت عبير المنزل، ألقت بالمفاتيح على منضدة وسط البهو، وأخذت وائل بين ذراعيها، راحت تدور به حول نفسها، تطلق ضحكات هستيرية طويلة، تشعر كأنها عصفور تحرر أخيرا من سجنه، فذهب يطير بكل ما فيه من قوة..

وائل يضحك بقوة، رغم أنه لم يع الكثير من الأحداث، لكنه شاركها الضحكات، فهذه أول مرة يراها بهذه السعادة. ثم سألها:

- لماذا أخذت المفاتيح من العم عبده، ومفاتيح المتجر من العم نوفل؟.

جلست على أقرب مقعد لها، ثم تنهدت، وقالت:

- الحرية يا صديقي.. ما أجمل الشعور بها.. فليس بعد الموت موت.. كما قال منعم.

هز وائل رأسه فرحا، وارتمى في صدرها.

ملعقة شاي

نسمات الخريف المنعشة، تداعب الستائر، ودفء أسري يفوح به منزل عبد المنعم. سوسنة تداعب أختيها في الرواح والمجئ، وتقبل والدتها كلما مرت عليها. دائما ما تحدث جلبة بضحكاتها وصوتها الرفيع. والدتها في مقعدها على يمين باب حجرة الجلوس، تضحك ملء شدقيها، سعيدة بهذه الجلبة التي تحدثها سوسنة. تلتصق بها نرجس من جهة اليمين، تستدفئ معها تحت "شال" قطيفة أسمر اللون. عبد المنعم يجلس قبالة زوجته، يشكر الله في سريرة نفسه، كلما رآها تتعافى مع العلاج الجديد.

تدخل ياسمين تحمل صينية "الشاي"، تضعها في المنتصف، على منضدة صغيرة، ثم تجلس على يسار والدتها، تستدفئ هي الأخرى بطرف "الشال" الأسود.

قرأ عبد المنعم في ملامح ياسمين كلمات تود أن تقولها، لكن سوسنة مازالت في ثرثرتها، لم تعط الفرصة لأحد أن يقول شيئا. أشار عبد المنعم بيده، وقال:

- أراك مبتهجة الليلة يا ياسمين.. يبدو أن وراءك أخبارا سارة.
- نعم يا أبي.. أخبار غير متوقعة.
- احكي لنا.. كيف كان يومك مع صديقي وائل؟

ارتسمت على وجهها ابتسامة الواثقة، وقالت:

- رؤيتي الأولى كانت صائبة.
- كيف؟
- وائل صبي معجزة.. رغم ما مر به أزمات، إلا أنه مازال يختزن في أعماقه الكثير، ويخبئ وراء صمته كل ما تعلمه في الماضي، ولا يحتاج إلا كما يحتاج كوب الشاي إلى ملعقة صغيرة، لإذابة السكر.

انطلق الجميع في الضحك لهذه الكلمات. وقالت سوسنة:

- خلاص يا ست.. نشتري له دستة ملاعق.. لو كان هذا العلاج.

ضجت الجميع بالضحك، ثم قالت ياسمين:

- ماذا لو وضعنا السكر في كوب الشاي، وشربنا دون أن نقلبه؟

قال عبد المنعم:

- سوف يكون مر الطعم، ولا يستساغ.

- إذن لا بد من تقليبه بملعقة.

- نعم.

- هكذا هو عقل وائل.. يحتاج إلى تقليب بسيط، فيطفو مخزون العقل الراكد في أعماقه، ويساير الأسوياء من أبناء جيله.

في حركة مضحكة، مطت سوسنة شفتها السفلى، وقالت ساخرة:

- يا سلام على التشبيه.

لم تعرها ياسمين اهتماما، وقالت لوالدها:

- ليس هذا الأمر مقتصرا على وائل فقط، بل يصير على كل العقول البشرية. فمن يحفظ القرآن، يواظب على مراجعته باستمرار، حتى لا ينسى ما حفظ منه، وكذلك الطالب، يراجع دروسه كل فترة، حتى يظل على اتصال بما كان له من تحصيل.

عبد المنعم ينظر إلى ياسمين بإعجاب دفين، سعيد لأنها على قدر كبير من الثقافة، ليس في تخصصها فقط، بل في أكثر من مجال.

استطردت ياسمين قائلة:

- أتعرف يا أبي.. أن وائل يمتلك طاقة جبارة، وعنده استعداد للتعلم، كأنه يريد أن يعوض سنوات الخمول.

قالت نرجس:

- وهذا سوف يساعده في مهمتك معه
- نعم يا دكتورة.. لقد لاحظت أنه يريد أن يعرف كل شيء، يريد أن يجرب بنفسه، وهذا عندما كنت أشرح له كيف يستخدم الدراجة، لا يبالي بعواقب الوقوع من عليها، وإذا وقع، كان يقوم بسرعة، دون مساعدة أحد.

سكتت ياسمين برهة، ثم قالت:

- أرجو من الله أن يبعد عنه عائلته، هذا سوف يساعدنا في النهوض بعقله في أسرع وقت ممكن.

سألتها والدتها بصوت ضعيف:

- وهل عائلة وائل عائق في علاجه؟.

تنهدت ياسمين، كسا الحزن نبراتها، وقالت:

- الحقيقة.. أن عائلته السبب في كل شيء
- كيف.؟
- نعم يا أمي.. ما عرفته اليوم، لا يصدقه عقل، ولم أتخيل أن هناك رجل بهذه القسوة مثل عمه عطية، وجدته لوالده.

سكتت برهة وقالت:

- عرفت أن عطية استغل وفاة أخيه، فأصر أن تنتقل عبير بولدها للعيش في بيته مع والدته، بحجة الحفاظ عليها، لأنها مازالت صغيرة في العمر، وعلى درجة من الجمال، ثم تولت عبير إدارة متجر المفروشات، وتركت وائل في صحبة جدته وعمه وزوجة عمه طوال النهار. وهنا كانت الفاجعة.. تعرض وائل للقتل البطئ.

فزعت سوسنة مكانها، وقالت بلهفة:

- القتل البطئ؟!!

- كان عمه يضربه بعنف على أتفه الأسباب، وكذلك جدته وزوجة عمه، ويرغمونه على الجلوس في ركن من المنزل، لا يبرحه أبدا، يضعون له الطعام ليأكل وحده، كأنه حيوان لا يحق له الجلوس معهم على مائدة الطعام. وليس هذا فحسب، كان حسام ابن عمه يعتدي عليه بالضرب، يجرب فيه ما كان يتعلمه من لعبة الكاراتيه، ولم يستطع وائل أن يرفع يده ليصد ضرباته، أو يدافع عن نفسه بأي وسيلة، وإلا العقاب من عطية أو المرأة العجوز. فجعلوا من وائل شخصا يشعر بعدم الارتياح أينما كان، وضيق مكتوم لا يستطيع البوح به، والخوف من العقاب المتكرر، فتعطلت كل حواسه، حتى عقله، لا مجال له في التفكير في شيء، أو الحلم بشيء، لأن الخوف والقلق قد ملأه عن آخره. ومن الطبيعي أن تتأثر أعضاء الجسم بهذه الحالة النفسية السيئة، فدائما ما كان يشعر بحرقان المعدة، ودوار وصداع أكثر الوقت، والأرق في الليل. كل هذا ووالدته لم تعرف من أمر ابنها شيئا، لأنها كانت تعود كل ليلة في وقت متأخر، مرهقة من تعب النهار، فتراه نائما، وقليلا ما يكون مستيقظا عند مجيئها، فتنام بجواره، وقلبها يعتصر ألما. ولم تكتشف التغيير الذي أصبح عليه ولدها، إلا عندما رسب في المرحلة الخامسة الابتدائية للمرة الثانية، فأصرت على الجلوس مع ولدها، ثم جن جنونها، عندما رأت حسام يضرب ولدها، وهنا قررت الاستقلال بحياتها مع وائل، عسى أن تعود به إلى طبيعته الأولى.

لكنها لم تستطع، لأن وائل صنع حائلا بينه وبينها، يشعر بكره دفين لها، لكنه كره أقل من كرهه لعمه وجدته وحسام، فهي لم تضربه على الأقل. وتولد هذا الكره، لأنه يظن أنها تركته بمحض إرادتها، ليكون فريسة لعائلته، ولم يرها تدافع عنه ولو مرة، ولذلك فشلت في النهوض به، لأنه لم يتقبل منها شيئا، حتى التقى بك أنت يا أبي.

سكتت ياسمين عن حديثها. الدهشة تملكت الجميع، ذهبوا في صمت طويل، يحاولون التغلب على دموع تتأرجح في أعينهم، وعلى ثورة غضب تشتعل بها

أعماقهم، شفقة على هذا الصبي المسكين.

ثم لف عبد المنعم ذراعه حول رقبة سوسنة، وضمها إلى صدره في حنان، يحاول أن يهدأ من بكائها الدفين، وقال:

- إذا وائل لم يكن معاقا عقليا، بل هم أرادوا إعاقته أكثر.

قالت ياسمين:

- نعم يا أبي.. أرادوا ذلك، طمعا في ميراثه الذي تركه والده.

تنهد عبد المنعم في حرقة، وقال:

- أسوا الغايات، التي يكون الضحية فيها إنسان.

- نعم يا أبي.. غاية رخيصة.. وإن كانت الحياة نفسها.

قالت أمها بصوت ضعيف:

- وماذا ستفعلين أنت معه في الغد؟

- سوف أذهب معه غدا، لتسجيل اسمه في كشوف امتحانات المنازل للمرحلة الابتدائية، واشترى له كتب المدرسة، وأبدأ معه المذاكرة، بعد تهيئته نفسيا أكثر.

وهنا هللت سوسنة، وقالت متحمسة:

- سوف أذاكر معه الرياضيات، وأجعله المتفوق بلا منازع.

ضحكت والدتها على لهجتها، وضحك الجميع لها، ثم دعوا لياسمين بالتوفيق في مهمتها.

عطية.. تمزقه الحيرة.

كان الصمت يخيِّم على خطوات عطية، وهو عائد من منزل عبير، يمسك ولده حسام بيمينه، وتتأبط والدته العجوز يساره. يستبد به الغيظ.. وتمزقه الحيرة. عقله ساحة واسعة، تجري فيها خيول من الأسئلة التي لم يجد لها إجابة. كيف غابت عبير عن عيون جواسيسه؟ وأين كانت تمضي النهار؟.. هل التقت مع رجل ما؟ ومن أين جاءت بهذه الجرأة في الرد؟

أما والدته، كانت غارقة في بحر من الحنين إلى ولدها عبد الله. لأول مرة تراه في وجه وائل. صرخ في أعماقها صوت مجهول، لم تعرفه من قبل: "لماذا تكرهين وائل؟ ولماذا تعميك كراهيتك لعبير عن حبك لحفيدك؟ ما ذنب هذا الطفل وهو قطعة من ولدك عبد الله؟"

تنهدت المرأة العجوز، وقالت في نفسها: "سامحك الله يا عطية.. لقد أعميت بصيرتي بطمعك في أموال أخيك".

عندما دخلوا المنزل، وصعدوا إلى الدور الثاني، دفع عطية ولده حسام بغضب شديد، طرحه أرضا في منتصف الصالة، فعنفته المرأة العجوز، وجاءت والدة حسام تصرخ، والتقطت ولدها من الأرض، وهي تسأله:

- ماذا فعل حتى يلقى هذا العقاب؟.

قال بغضب:

- كان جبانا.. لم أعرف متى تعلم الجبن؟

لم تعلق المرأة العجوز بشيء، جلست هادئة، تركت مشاعرها فريسة للحنين الذي تولد في أعماقها، تحاول أن تخبئه عن عطية، حتى لا يزداد غضبا فوق غضبه. أما عطية كان يتجرع مرارة الخيبة، مع رشفات القهوة التي أعدتها زوجته..

كيف كانت عبير تعلم بكل ما يدور حولها طوال هذه السنوات؟.. من أخبرها

بأمر المراقبة التي كنا نحكمها بها؟.. هل هناك من أخبرها من رجالنا؟.. ولماذا سكتت طوال هذه السنوات؟

وفجأة التفت إلى والدته، وقال ساخرا من نفسه:

- يبدو أن رجالي أصابهم العمى كما قالت عبير، أو أن بينهم من أخبرها بكل شيء.

لم يجد ردا من والدته، مازالت غارقة في بحر من الحنين.

جرس الهاتف شق صمت الدار. أسرع إلى الهاتف القابع في ركن البهو:

- ألو.. من.

- ..

- خير يا أستاذ نوفل.

- ...

- ماذا؟

- ...

وضع سماعة الهاتف في زمجرة مكتومة، وعاد إلى جلسته بجوار والدته بخطوات مهزومة، وجهه بين الاحمرار تارة، والزرقة أخرى، كأن يد خفية تقبض على عنقه بشدة. سألته والدته مضطربة:

- ماذا يا عطية؟.

تنهيدة حارة خرجت من أعماقه، مد يده فك "الزر" العلوي من الجاكيت الشتوي، عسى أن يخفف من الاختناق، وقال:

- عبير طردت نوفل والعمال من المتجر.

أصابتها الدهشة هي الأخرى، وقالت:

- ماذا؟.

وعلا صوته فجأة، أخرج غيظه المكتوم، وقال:

- بهذا.. تحفرين قبرك بيدك يا عبير.

علا صوت والدته أكثر منه، وقالت في حزم:

- أحذرك يا عطية من أي أذي لها أو لولدها، وائل حفيدي مثل حسام ابنك.

ثم أرادت أن تخمد ثورته الغاضبة، وتعيد إليه رشده، فقالت:

- ليس لنا الحق عند عبير وولدها، ولكن ما نفعله هو أننا كنا نستكثر أموالهما عليهما.

نظر عطية إلى والدته في عجب شديد، لقد لمست الحقيقة التي يغفل عنها بإرادته، وقال:

- من المستحيل أن أترك الثروة تضيع من يدي، مهما كلفني الأمر.
- لا تجعل غضبك يعميك.
- ليس لدي صبر للتفكير.

وبينما هما في حوارهما، فإذا برنين التليفون يأتي مرة أخرى. شعر بأن هناك أمرا آخر، نظر إلى والدته، كأنه يستمد منها القوة، ثم تقدم نحو التليفون، رفع السماعة في توجس:

- ألو.. من؟
- .. ..
- نعم يا عم عبده..
- ..
- ماذا.. سحبت منك مفاتيح التاكسي أيضا!!.

وهنا.. أدرك أن عبير أعلنت التمرد والخروج من قوقعتها، وأنها عثرت على من تحتمي به. لكن.. من هو؟

لا يضيع حق، ووراؤه مطالب

سطعت أشعة الشمس على مدينة طنطا. نسمة خفيفة باردة، أيقظت النشاط في الجوارح.

تراقصت لها خصلات شعر ناعم على كتف ياسمين، تدلت من تحت طاقية صوف قرمزية اللون، وهي في طريقها إلى عبير وصديقها وائل.. وكعادته.. وائل يقف مع والدته قبل الميعاد بنصف ساعة، في انتظار القادم من أسرة عبد المنعم، فرحا بالحقيبة الرياضية التي على ظهره، والتي فيها ملابسه الرياضية. انفلت وائل من قبضة والدته، وأسرع إليها، وارتمى برأسه بين ذراعيها، وسألها في لهفة:

- أين صديقي منعم؟
- صديقك سوف يتأخر اليوم بعض الوقت، وها أنا أتيت بدلا منه.
- لماذا.. وكيف أراه؟.

هكذا وائل.. لا يعرف للصباح معنى إلا برؤية منعم. أعجبت ياسمين بهذا الحب الذي يكنه لأبيها، فتأبطت ذراعه بحب، ثم سارت به حيث تقف عبير. وبعد أن تبادلوا تحية الصباح، ذهب الثلاثة في طريقهم إلى المدرسة الابتدائية القريبة من منزل وائل، لتسجيل اسمه في كشوف المنازل. ومنها إلى شارع المكتبات، لشراء كتب المرحلة الابتدائية، وكل ما يلزمه من أدوات مدرسية.

في الطريق، لاحظت ياسمين سعادة غامرة على وجه وائل، ظنت أنه أمر طبيعي، لأنه لم يذهب إلى مدرسته اليوم، وأنه سوف يذهب معها إلى مركز الدكتور باسم، لإجراء أول جلسات العلاج الطبيعي، ثم المرور على النادي، لتلقي التدريب الثاني في لعبة الكاراتيه. لكنه فاجأها قائلا:

- لقد خاف مني أمس، وعرف أنني أقوى منه، وأستطيع هزيمته.

هزت ياسمين رأسها، وقالت:

- من يا صديقي؟

- حسام.. كان يجلس مثل الفأر المذعور.

نظرت ياسمين إلى عبير، تستوضح منها الأمر.

راحت عبير تقص لها عن زيارة عطية ووالدته ليلة البارحة، ثم ذهابها إلى متجر المفروشات، وسحب المفاتيح من "نوفل"، وإنهاء عملهم بالمحل. وكذلك إعفاء عبده السائق من العمل على عربة التاكسي.

وأثناء الحديث، كان وائل يقاطعها، ويحكي فرحا عن خوف حسام منه، ويكرر أنه عرف بقوته، ولذلك جلس مثل الفأر المذعور، ثم تأسف لأنه لم يرتد بذلة الكاراتيه وقتها، حتى يري حسام قوته الحقيقية.

هللت ياسمين، وباركت ما فعلت عبير ووائل، وقالت لها أن هذه هي أول خطوة في طريق الخلاص، والعبور بولدها إلى الغاية المرجوة. لكن مسحة من الخوف جرت على وجه عبير، وقالت:

- خائفة على ولدي يا أستاذة ياسمين.

- من ماذا؟

- أنت لا تعرفين كم هو شرير، ومن الممكن أن يفعل أي شيء يؤذينا.

- هل تشعرين أنك على حق، أم باطل؟

- على حق والحمد لله.

- والحق اسم من أسماء الله، والله لا يهزم حقا أبدا.

- حتى ولو كانت أبواق الباطل كثيرة.

- مهما كثر أهل الباطل، فهم ضعفاء، بشرط أن نستمسك بالحق.

تنهدت عبير، وسكتت برهة. فاستطردت ياسمين قائلة:

- الحق لا يضيع ممن لا يتمسك به.

- ونعم بالله.

توقفت ياسمين عن المسير فجأة، التفتت إلى عبير، وقالت:

- أتعرفين أن أحداث الأمس، خطوة كبيرة في حياة وائل!
- كيف؟
- يكفي أنه خرج من قوقعة الخوف التي كانت تسيطر عليه، وهذا سيدفعنا للأمام سنوات طويلة.
- هذا عزائي يا أستاذة.

عندما سجل اسمه في كشوف امتحانات المنازل، أشرقت السعادة على وجهه أكثر، ثم ازدادت عن آخرها عندما أمسك بأدوات المدرسة، وحملها في حقيبته، سار فرحا، يتأبط ذراع صديقته ياسمين، تتبعهما والدته، في الطريق إلى مركز الدكتور باسم، لإجراء جلسة علاج طبيعي، ثم الذهاب إلى النادي، ليمارس تمرينات الكاراتيه التي أحبها.

على جمر من النار.

منذ أن صفعته عبير بطرد جواسيسه من متجر المفروشات، وسحب مفاتيح التاكسي من العم عبده. استبد به الغضب لأنها حرمته من مبلغ يومي يدخل خزينته دون تعب، مبلغ يفوق ما يتقاضاه في اليوم، عن عمله كموظف في وزارة العدل، ويفوق المبلغ الذي يتبقى لأصحاب المتجر. أصبح كثير الصراخ في المنزل، عنيفا في كل شيء، حتى مع زوجته ابنة خالته، والتي تعينه على مواصلة أطماعه في ميراث ابن أخيه.

والدته العجوز.. تخشى أن يعميه غضبه، فيرتكب حماقة تودي به وبمستقبله، ولذلك.. كانت تلجمه بكل قوة، تحذره من أي إجراء عنيف ضد وائل أو والدته، أو اتخاذ أي قرار دون الرجوع إليها. واشتدت حيرته، حينما راقب خطوات عبير وولدها بنفسه، وعرف أن الأستاذة ياسمين تقوم بتعليم وائل، والأخذ بيده من مستنقع الإعاقة الذي أوقعه فيه، والذي كان يريده مستقرا له. وظل عطية يراقب كل صغيرة وكبيرة في حياة عبير وولدها، عسى أن يجد بابا يدخل منه إلى حياتها من جديد. عرف أن أسرة عبد المنعم تتولى تعليم وائل، واصطحابه إلى مركز الدكتور باسم، وإلى تدريبات الكاراتيه، وتدريبات سباق الدراجات.

ولاحظ أن عبير تتردد أحيانا على متجر المفروشات في ميدان ستوتة، تجلس فيه مع عبد المنعم ساعة أو بعضها، ثم تغادره. ثم رأى مراحل تجديد متجر المفروشات، وإشراف عبد المنعم عليه، وافتتاحه أيضا، مستعينة بعدد من العمال، جاءت بهم من ميدان ستوتة. وأشد ما كان يزعجه، رؤية وائل وهو يستجيب للخروج من مستنقع الإعاقة بسرعة مذهلة، ويتقدم في دراسته، ويستعد لامتحان الابتدائية الذي يحين بعد أيام. يواظب على تدريبات الكاراتيه، وينافس على المراكز الأولى في سباق الدراجات، مما زاد من تناسق جسمه، وانتصاب قامته.

وائل كعصفور يواصل انتفاضاته، يضرب بجناحية أسوار الظلام، محلقا في نور الفضاء، يلعن الجبن والخضوع. حتى تلاشى السجن من أعماقه، وأصبح أطلالا..

يستنشق الحرية، يملأ صدره عن آخره، ويطرده زفيرا بقوة، يخرج معه بقايا الخوف والخنوع. من حوله عبد المنعم وزوجته، وياسمين ونرجس وسوسنة، جعلوا له الحياة ربيعا مزهرا، يقضي بينهم أكثر ساعات النهار، ثم تستلمه والدته عند كل مغرب.

عبير تمسك بذيله، انطلقت هي الأخرى، يملأها أمل كبير في ولدها، أصبحت تحرص على الإمساك بكل دقيقة في الحياة، تحاول أن تسعد ولدها بكل ما تستطيع، عسى أن تعوضه عن سنوات العمر الماضية في الخنوع والاستسلام.

استبد الغضب بـ عطية، لا بد من عمل شيء يشفي ما في صدره من حقد. لكن.. ما هو هذا الشيء؟.. ثم فكر في استغلال أقاربه الذين يشغلون أماكن مرموقة.

من ألاعيب عطية

انقبض قلبه.. لم يعرف عبد المنعم.. لماذا؟.. حاول أن يشغل نفسه بلقاء وائل ووالدته، والذي يحين بعد خطوات كعادته كل صباح. قص وائل عليه عن أصدقائه الأرانب، وكيف ازداد عددهم فوق السطح، وأنه سوف يشتري اليوم ثلاثة بيوت، بعد أن يعود من النادي، وهذا ما وعدته به أمس صديقته ياسمين. ابتسم عبد المنعم، وأوصاه بهم. فقال بجدية:

- طبعا.. أنا أواظب على تقديم الفطور لهم مع صديقتي رحمة، والتي تأتي كل صباح ومساء، وأساعدها في تنظيف بيت الأرانب.

لاحظت عبير أن هناك شيئا في أعماق عبد المنعم، شيء ذهب بحيويته المعهودة في الحديث، ويكسو قسماته حزن دفين. لكنه يحاول كتمانه، ويصطنع السعادة بلقاء وائل. تفحصته.. همت أن تسأله، لكنه قال لوائل:

- أسرع إلى صديقتك سوسنة، فهي تنتظرك في المنزل الآن، تود أن تذاكر لك مادة الرياضيات، حتى تأتي ياسمين بعد الظهر، وتصطحبك إلى النادي.

ومضى في طريقه إلى عمله الحكومي، قبل أن تسأله عبير عن سر هذا التغيير، مما أوقعها في حيرة، لكنها مضت مع ولدها.

* * *

عندما جلس على مكتبه، لاحظ نظرات الزملاء تحيط به في صمت، يشوبها استغراب، وتساؤلات كثيرة. لم يعرف لماذا؟ ثم رأى الساعي يبلغه باستدعاء المدير له. اشتد انقباض القلب، فوضع يده عليه، عسى أن يخفف من ألمه.

استقبله المدير بابتسامته الهادئة، وطلب منه الجلوس. ثم قال:

- لا أعرف ماذا أقول لك يا أستاذ عبد المنعم!

- ماذا يا أستاذ مصطفى؟

- أشهد أنك موظف مثالي، على الجوانب العملية والأخلاقية، والذي يقوم بعمله على أكمل وجه، ولكن.

سكت الأستاذ مصطفى لحظة، ذهب فيها عبد المنعم في خيالات مبهمة، وتوقعات لأشياء غير منطقية. ثم استطر المدير قائلا:

- منذ يومين، جاء أمر بنقلك إلى وحدة محلة مرحوم، فتعجبت.. وأرسلت لهم خطابا لأستفسر عن صحة الأمر، وقلت أن العمل هنا في حاجة إليه، لكن الرد جاء بتنفيذ الأمر فورا.

وسكت المدير، ينتظر رد عبد المنعم، الذي أسكتته المفاجأة، كأن صاعقة نزلت به، ذهب يفكر في سبب هذا الخطاب.. وهل هناك دسيسة من شخص ما؟

تنهد عبد المنعم خفيفا، عندما طاف برأسه خيال وائل، وتساءل: "ماذا عن وائل.. الإدارة في آخر مدينة طنطا من الجهة الأخرى، تبعد نصف ساعة عن هنا إذا ركبت الأتوبيس، وتحتاج أن أخرج من المنزل قبل الموعد بساعة.. هل يكون الصباح صباحا دون رؤية وائل؟

ثم هدأت نفسه بعض الشيء، ونظر إلى الأستاذ مصطفى، بعد أن رسم على وجهه ابتسامه، وقال:

– لا بأس.

– أعرف أن المكان لا يناسبك، لأنه يبعد عن مقر سكنك.

– نعم.. ليست هذه هي المشكلة الأصلية، لكن السؤال.. لماذا أنا؟.

– هذا ما يحيرني.

– لا بأس

ابتسم المدير ابتسامة عريضة، أراد أن يخفف بها عن عبد المنعم، وقال:

– لا تبتئس يا أستاذ عبد المنعم، سوف أبحث بكل جدية عن هذا السبب

الغريب، وأعمل جاهدا لإعادتك إلينا هنا.

– أشكرك جدا سيادة المدير.

واستأذن عبد المنعم، وسرعان ما سلم ما كان لديه من عهدة، وودع زملاءه، ثم استقل إحدى عربات الأجرة، وذهب إلى محلة مرحوم.

سرعان ما اندمج عبد المنعم مع الزملاء في المقر الجديد، فأكثرهم زملاء جامعة، وبعضهم جمعته به دورة تدريبية، أو اجتماع في الإدارة، وقليل يراهم لأول مرة. وهذا ما خفف عليه وطأة السفر.

* * *

اقتربت الساعة من الرابعة عصرا. عبير تجلس في متجر الملابس، قلقة، تتعلق نظراتها بالباب، تتفحص القادم. ثم تخرج إلى الشارع، تنظر في عربات الأجرة، ثم تعود إلى مقعدها على المكتب، تكتم تنهيدة يأس تتأرجح في صدرها.

تعجب ياسين، ونظر إلى أخته سعاد، وكذلك إلى سماح وغادة. الجميع يتعجب لأمر أم وائل؛ هذه أول مرة يرونها بهذا القلق.

وعند الرابعة نزل عبد المنعم من عربة أجرة.. صرخت لهفة على وجه عبير، قرأها ياسين والعاملات في المتجر، كادت تطير من مقعدها، ولكنها تمالكت نفسها، وانتظرت حتى جلس على المكتب.

بادرها عبد المنعم قائلا:

– منذ متى وأنت هنا؟

– قبل الظهر.

التفت إليها في عجب، وسألها:

– خير يا أم وائل.. لماذا؟.

– ماذا بك أنت.. قلقت عليك عندما رأيتك في الصباح.. كان وجهك مرهقا.

أدرك عبد المنعم أنها قرأت انقباض قلبه، فابتسم خفيفا، ثم قال:

– اطمئني.. بسيطة.

– صارحني.. ما الأمر.

– تم نقلي إلى محلة مرحوم.

قالت في لهفة:

– لماذا؟.

– لا أعرف السبب.. غير أنها أوامر عليا.

ذهبت عبير في التفكير لحظة، فلاحقها عبد المنعم، وقال:

– العمل لا يؤذيني، ولم يؤثر على حياتي في شيء، كما لم يتعبني السفر، لكن المشكلة في الوقت الذي سوف يضيع في الذهاب والعودة.

مازالت عبير في تفكيرها، الذي اتجه إلى "عطية"، فهي تعتقد أنه وراء أحداث اليوم، بواسطة أقاربه في الوظائف العليا. إذن هو يراقبها، ويعرف كل شيء عنها. ثم هزت رأسها، وقالت في نفسها: "يبدو أن عطية يراقبنا جيدا، ولذلك بدأ يضع القلاقل في طريقنا"

استدارت برأسها إلى عبد المنعم، وقالت مبتسمة:

– لا تقلق.. عربة التاكسي تم تجديدها والحمد لله، وسيتولى السائق "عبد العظيم"، أمر الذهاب والعودة بك، اختصارا للوقت.

– لا.. هذا كثير.

قالت بصوت هادئ:

– لا تقلق.. ليس مجانا بالطبع، سوف نضيف بند يخصم من الأرباح، أجرة التاكسي، طالما أن هذا في سبيل تواجدك في العمل.

وضحكت، فضحك ياسين والبنات، ثم نظر عبد المنعم مبتسما إلى ياسين

وأخته سعاد وغادة وسماح، وقال:

-كيف أقلق.. ومعي أصدقاء مثل هؤلاء، يقومون بالعمل على أكمل وجه.

انفرجت أسارير الجميع، ثم رأى عبد المنعم أن يسخر من أحداث اليوم، فطلب من ياسين أن يحضر لهم غداءً فاخرا، بمناسبة نقله إلى مقر جديد.

الحادثة

عند بكور الشمس، سطع وجهه الخمري. وداعبت شعره الأسود الناعم، نسمة خفيفة باردة. "رحمة" ابنة الثانية عشر، ترمقه بنظرات خاطفة على استحياء شديد. بين الحين والآخر، تعدل من خصلات شعرها الحريري، الذي يتسلل من تحت "إيشارب" أصفر اللون. ترمق ساعديه القويين وهو ينظف بيوت أصدقائه الأرانب، وجسده الرشيق وهو يتحرك بين بيوتها، يقدم لهم وجبة الفطور في صمت. أكبرته في نفسها، وأرادت أن تجذبه للحديث، فقالت:

– ما شاء الله.. أصبح عندنا خمسين صديقا.

رد عليها دون أن يلتفت لها:

– الحمد لله.. هيا يا صديقتي.. أريد أن ننتهي في أسرع وقت.

لم يعجبها رده القصير، كانت تود أن تفتح معه حديثا طويلا هذا اليوم.

فسكتت بعض الوقت، ثم سألته:

– لماذا العجلة يا صديقي؟.

– بعد نصف ساعة، سوف أذهب مع صديقتي ياسمين إلى المدرسة.

– لماذا.. وقد انتهيت من الامتحانات منذ أيام.

ابتسم وائل، وقال:

– سوف نذهب لمعرفة النتيجة.

وهنا علا صوتها العذب، وقالت بنبرات رقية:

– إن شاء الله من الأوائل.. ويا رب أراك أستاذا كبيرا مثل عمو عبد المنعم.

سمعت عبير كلمات رحمة الأخيرة، وهي قادمة عليهما، فابتسمت، وتقدمت منهما وهي في أبهى صورة لها، وقالت:

– ربنا يسمع منك يا رحمة.

ثم قالت لولدها:

– لقد تأخرنا.. أسرع وارتد ملابسك التي جهزتها لك.

– لا يمكن أن أذهب قبل أن أقدم الفطور لأصدقائي.

في صوت حنون، كأنه الهمس، قالت رحمة:

– اذهب أنت يا أستاذ وائل، وسوف أقوم بتقديم الفطور.

موجة من السعادة، أثلجت صدر عبير، أدركت بحسها الأنثوي مشاعر رحمة الدفينة.

التفت وائل إلى رحمة، وسألها:

– هل ذهبت إلى المدرسة يا رحمة؟

قالت بلهجة سريعة:

– نعم.. لكن خرجت منها بعد الابتدائية.

– يعنى أنت تعرفين القراءة والكتابة.

– نعم.

– هل تريدين العودة للتعليم؟.

– أتمنى ذلك.

– أعدك يا صديقتي.. سوف أساعدك، لتعودي إلى الدراسة مرة أخرى.

ابتسمت رحمة فرحة، وقالت بصوت أكثر عذوبة:

– شكرا يا أستاذ وائل.

شعر بنشوة دفينة، وهي تكرر كلمة "أستاذ"

مضى وائل مسرعا، ليرتدي ملابسه، حتى يلحق بصديقته ياسمين، التي وعدته

بمفاجأة كبيرة، إذا حصل على مركز متقدم. وبعد قليل، انتهت رحمة من تنظيف وإطعام الأرانب، ونزلت بصحبة عبير.

في الوقت الذي خرج فيه وائل من باب الشقة، يرتدي "تيشيرت" سماوي، يظهر تناسق جسده الفتي، على بنطلون "جينز"، وحذاء أسود لامع، زاد في طوله قليلا، غير أنه جرى بالمشط في شعره الناعم، بعد أن وضع عليه نوعا من "الشامبو"، فثبته حتى لا يتأثر بالهواء، وزاد من لمعانه، أكبرته رحمة مرة أخرى، وأغمضت عينيها وهي تملأ صدرها بشهيق طويل، معبأ برائحة ذكية تعطر بها. في الوقت الذي امتلأت عبير فخرا بولدها، وهي تراه في أبهى صورة.

قالت رحمة:

– ليتني أستطيع المجئ معكم، حتى أطمئن على النتيجة.

قال وائل:

– إذا حصلت على مركز متقدم، سوف أحضر لك هدية.

لم تقل رحمة شيئا، لقد سمعوا نفير العربة، فأدركوا أن العم عبد العظيم السائق قد جاء، ومعه ياسمين.

عندما اقترب من العربة، سمع تهلل صديقته سوسنة، تجلس بجوار أختها ياسمين، فقابلها بتهليل أكثر منه فرحة، وسألها:

– هل تأتين معنا؟

– نعم.. أنا متلهفة على النتيجة.

سارت بهم العربة، في طريقها إلى المدرسة. راحوا يتبادلون أحاديث شتى، ويتوقعون ويحلمون بمجموع متقدم، يتناسب مع المجهود الكبير الذي بذلته ياسمين وسوسنة مع وائل، ويتناسب مع ذكاء وائل ورغبته الجامحة في التقدم.

زحام وهرج ومرج أمام المدرسة. تختلف الوجوه والمشاعر. دموع هنا وأفراح هناك.

وقف وائل بين سوسنة وياسمين ووالدته، بجوار العربة، تتسارع دقات قلبه، ينقبض كلما رأى دمعة تلميذ لم يحالفه النجاح، ويهدأ كلما رأى سعادة آخر يبتسم. أصدقاؤه حائرون، لا يستطيعون خوض الزحام الشديد.

وإذا بالأستاذ مسعد الزواوي، مدير مدرسة التربية الفكرية، يخرج من باب المدرسة، يشق الزحام بصعوبة، تتبعه الأستاذة شيماء. أسرعت إليه ياسمين، فقابلها بتهلل، وقال وهو يلوح بالشهادة في يده:

– لم أصدق هذا المستوى.. رغم أن الشهادة في يدي.

– ماذا تقول يا أستاذ؟

– أقول لك.. مبروك .. الخامس على المدرسة.

موجات السعادة تدفقت في أعماقها، وأسرعت حيث يقف وائل، احتضنته وقبلته مرات، ثم أخذته سوسنة، وفعلت به مثل أختها، والدته غلبتها دموع الفرح، واحتضنت ياسمين وسوسنة، تدفقت بآيات شكر وامتنان لهما ولوالدهما عبد المنعم.

وغلبت العاطفة العم عبد العظيم سائق التاكسي، وراح يشارك الجميع فرحتهم، واحتضن وائل في عفوية شديدة، وقبله باكيا من شدة الفرح، كأنه كان معهم منذ بداية العام الدراسي، وقال بنبرة مؤثرة، ومن خلال دموع في عينيه:

– ألف مبروك يا أستاذ وائل.

ابتسم وائل، وربت على كتفه وقال:

– ربنا يبارك فيك يا عمي.

– أتمنى أن يمد الله في عمري، حتى أراك دكتورا، وصاحب مركز مثل الدكتور باسم.

– الله يعطيك الصحة والعافية يا عم عبد العظيم.

ثم جاء الأستاذ مسعد، وشيماء، قدموا له التهاني، وأبلغوهم أن مدرسة التربية الفكرية، ستقيم عند ظهر اليوم حفل تكريم لوائل، ليتعرف أولياء الأمور على هذا

النموذج، حتى يسلكوا الطريق مثله، عسى أن يخرج منهم مثل وائل.

أبدى وائل رغبته في زيارة مركز الدكتور باسم الآن، حتى يزف إليه خبر حصوله على المركز الخامس، ويقدم له كلمات الشكر والعرفان، هو وفريق الأطباء الذين سمحوا له بالتردد على المركز طوال الشهور الماضية. أكبرته ياسمين وسوسنة، وراحتا تنهلان عليه بالمداعبة.

في المقعد الخلفي من العربة، جلس وائل بين سوسنة وياسمين، اللتين لا تكفان عن تكرار التهاني، وكلمات الفرح. تشعران بالنصر، والخروج به من ظلمات إعاقة كانت حتمية.

أما عبير.. جلست بجوار العم عبد العظيم لأول مرة، مازالت الفرحة تمسك لسانها، لكن قلبها يردد كلمات الشكر لله.

في المركز.. هلل الدكتور باسم فرحا، عندما علم بتفوقه، وقدم له ساعة ثمينة، هدية منه لهذا التفوق. ثم هنأ ياسمين، باقترابها لنيل درجة الماجستير، في مثل هذه التجربة الحية..

وكذلك أطباء المركز، زفوا له التهاني، وأيضا الرواد الذين يعرفون وائل، وذويهم الرجال والنساء، وتمنوا أن تتغلب أولادهم على عوائق الحياة مثل وائل.

ثم نقلهم العم عبد العظيم بالعربة إلى مدرسة التربية الفكرية. قالت عبير:

– تفضل أنت يا عم عبد العظيم، الوقت هنا سوف يطول، غير أن المسافة من المدرسة إلى المنزل ليست طويلة.

وسار العم عبد العظيم بالتاكسي، بعد أن غمر وائل بالتهاني، متمنيا لهم دوام التفوق.

في مدرسة التربية الفكرية، أمر الأستاذ مسعد الزواوي بإخراج التلاميذ إلى الفناء، في وقت غير ما يعتاد فيه الطابور، كما سمح لذويهم بالدخول، والوقوف في صفوف خلف التلاميذ.

لم يعرف أحد لماذا هذا الاجتماع المفاجئ، غير شيماء مسئولة الفصل الذي به وائل.

في نبرة تلونها سعادة غامرة، وفخر جلي، أمسك الأستاذ مسعد "بالميكروفون"، وأعلن عن مفاجأة سوف يسوقها بعد قليل. فاشرأبت الأعناق، وفغرت الأفواه، الجميع يتطلع لمعرفة المفاجأة.

الأستاذ مسعد يطيل في الكلمات، حتى يزيد من شوقهم.

وأخيرا.. دخل وائل من باب المدرسة، وسط والدته وسوسنة وياسمين، فعلا بصوته، وأشار نحوهم، وقال:

– هذه هي المفاجأة.

التفت الجميع إلى القادمين، فلم يجدوا جديدا، فملأتهم خيبة الأمل، واستصغروا الكلمات.

وعندما اقترب وائل منهم، دعاه مدير المدرسة إلى الجلوس بجواره، وقال:

– أرى خيبة الأمل في أعينكم، يبدو أنكم غير مصدقين أن هناك مفاجأة.

سكت برهة، دار فيها بنظراته في الجميع، ثم وضع يده على رأس وائل، وقال:

– المفاجأة.. هو زميلكم وائل.. الذي حول مسار تعليمه من التربية الفكرية، إلى مسار التعليم الطبيعي، وانتسب إليها من المنزل، وحصل على المركز الخامس على مستوى المدرسة، وهذا بفضل جهود أسرته، وجهود معلمته الأستاذ ياسمين.

علت صيحات الفرح، وعلت التهليلات بالتهاني لزميلهم وقالوا. "إنها مفاجأة حقا"

أشار لهم الأستاذ مسعد بالسكوت والإنصات إليه، وقال:

– أقدم لكم هذا النموذج، لأقول لكم أن الأمل قائم في النهوض بأطفالكم، إلى مستوى أعلى، وعليكم أن تحذوا حذو أسرة وائل، لأن المدرسة وحدها لن تصنع تفوقا، فلا بد من معاونة الأسرة مع المدرسة، حتى ننهض بأولادنا، إلى مكانة ترضينا.

ثم سكت لحظة، وأشار إلى ياسمين، وطلب منها أن تتقدم.

تقدمت ياسمين، والخجل يملأها، فهذه أول مرة تتحدث أمام جمع غفير، غير أنها لم ترتب أي كلمات. قال الأستاذ مسعد:

– أقدم لكم الأستاذة ياسمين، التي أشرفت على تعليم زميلكم وائل، لتخبركم بالخطوات الأولى في تعليم الأولاد، وعن تجربتها الرائعة معه.

تقدمت ياسمين.. وقالت:

- لن أتحدث عن تجربتي مع وائل.. ولكن أود أن أقول لكم.. أن ابنك الذي يقال عنه أنه معاق هو حلم الكثير من الناس. وهو كنز لا يعرف قيمته إلا من دخل في أعماقه، وعاش في عالمه. فعيشوا مع أولادكم. شاركوهم ألعابهم ولهوهم وغضبهم. الطبيب ليس هو المعالج الوحيد للطفل. والمدرسة أيضا كذلك.. فالأسرة عليها دور أكبر من دور أي طبيب وأدويته، وأكبر من دور المدرسة. علاج ولدك عندك أنت.. والنهوض به في يدك أنت. وسعادة ابنك في يدك أنت. وأقل ما يفعله الأب أو الأم نحو الطفل هو الاحتضان. لا تتعجبوا. الحضن يؤدي إلى الشعور بالسعادة.. وكسر الرهبة عند الطفل.. ويؤدي إلى توازن في الجهاز العصبي والشعور بالأمان.. ويفتح مجالا للصدق والصراحة بين الطفل ووالديه.. ويعالج الغضب ويقضي على الوحدة والشعور بالإهانة. الحضن يعلم الطفل العطاء.. ويكسر عنده حدة الأنانية.. الحضن يقضي على التوتر والضيق والضغط النفسي.. ويساهم في ارتخاء العضلات.. الحضن طاقة متبادلة بين الطفل ووالديه.. ويعزز العلاقة بمن يحتضنه.

وعندما انتهت ياسمين من كلماتها البسيطة، علت التصفيقات، في الوقت الذي أطل الخجل من عيون الكثير من أولياء الأمور، لأنهم لم يستطيعوا اكتشاف دواخل أولادهم، أو لم يحاولوا الدخول في أعماقهم.

والتف التلاميذ حول وائل، يهنئونه، ويودعونه، ويوصونه أن يزورهم بين الحين والآخر. كما التف أولياء الأمور حول ياسمين، يسألونها بعض الأسئلة، وعن عنوان مركز الدكتور باسم، حتى يبدءوا الخطوات الصحيحة في علاج أبنائهم، عسى أن

يكونوا مثل وائل.

* * *

ثم ودع وائل ووالدته ونرجس وسوسنة مدرسة التربية الفكرية، بعد لحظات حاسمة في حياة ياسمين ووائل، فالأولى شعرت بحجم مسئوليتها تجاه عملها الإنساني، وقررت أن تعطيه اهتماما أكثر. أما وائل فقد عزم على مواصلة مسيرة العلم، والحصول على أعلى الشهادات، بعد أن أصبح محل أنظار عدد كبير من الناس.

عبير.. تسبح في أعالي السماء فرحا. لأول مرة تشعر بسعادة لا حدود لها، فخرا بولدها وائل. الآن أصبح لها هدف أكبر في الحياة، وأصبح لها رجل تستند عليه عند الكبر، عوضا عن والده. تمنت أن تحتضنه وتضمه بكل قوة، لكن كيف وهو يسير بين سوسنة وياسمين، إحداهما تتأبط ذراعه، والأخرى تلف ذراعها حول عنقه، يداعبانه تارة، ويلقون عليه تعليمات جديدة تارة أخرى، يتقافزون في خطواتهم فرحا، وهي تسير خلفهم، في الطريق إلى المنزل، ومنه إلى متجر الملابس الجاهزة، ليلتقوا مع عبد المنعم، ويبشروه بتفوق وائل.

وبينما هم كذلك، فإذا بعربة قادمة من الأمام، تسير في الطريق المخالف، في سرعة غير عادية، تقترب منهم. سرعان ما أدرك وائل الموقف، فلف ذراعه اليسرى حول ياسمين، في الوقت الذي دفع فيه سوسنة بكتفه الأيمن وانحرف بهما يمينا، فوقع الثلاثة على الأرض، وسط صراخ عبير، وتأوهات ياسمين، وذهول سوسنة.

في لحظة.. التفت الناس حولهم، أسرع وائل بالوقوف، وساعد سوسنة على النهوض، وحاول بعض الرجال أن يساعد ياسمين، أسرع وائل إليها، لا يبال بجرح خفيف كان في جبهته، حاول أن يساعدها، لكنها مازالت تتأوه بشدة، لم تستطع الوقوف على ساقها اليسرى.

سرعان ما أشارت سوسنة إلى إحدى عربات الأجرة، وتحاملت ياسمين على كتف وائل وعبير، وركب الأربعة، في طريقهم إلى أقرب مستشفى.

* * *

في المستشفى، وبعد عمل الأشعات، تبين أن هناك شرخ بسيط في ساق ياسمين، فتم وضعه في الجبس. أما وائل، أصيب بشج بسيط في جبهته، وقام الطبيب بعمل غرزتين، ثم رباط شاش خفيف.

بعد ساعتين، غادر الجميع المستشفى، وذهبوا إلى منزل عبد المنعم، فانزعجت والدتها المريضة، وأختها سوسن، وسرعان ما اطمأن الجميع، عندما عرفوا أن الإصابات خفيفة.

وفجأة استأذنت عبير، تركت وائل مع أسرة عبد المنعم، واستقلت إحدى العربات الأجرة، لم يعرف أحد وجهتها. سارت بها العربة في الشارع الطويل، ثم انحرفت يسارا، مرت من أمام منزلها، ثم انعطفت يسارا، في شارع ليس بالطويل. وقفت بها العربة أمام منزل ينتهي به الشارع،

دخلت المنزل، وعلى وجهها غضب شديد، طرقت الباب بعنف، ففتحت زوجة عطية.

اندفعت كالثور الهائج:

– أين عطية؟

خرج عطية من حجرة نومه مذعورا، يعدل من ملابسه، وسط ذهول زوجته، واستغراب حسام الصغير. وما إن رأته، اقتربت منه بخطوات متحفزة، وعين تشتعل غيظا، وقالت في صوت قوي، وهي تشير بسبابتها إلى وجهه:

– أعرف أنك وراء نقل الأستاذ عبد المنعم، وأنت أيضا وراء مصيبة اليوم، لكن الحمد لله، جاءت بسيطة هذه المرة، وأحذرك.. لو تكرر هذا الأمر، أو أصيب ولدي أو أحد من أسرة الأستاذ عبد المنعم بأي مكروه، سوف يكون مصيرك السجن.

حاول "عطية" أن يجد كلمات يدافع بها عن نفسه، فلم يجد إلا أن ينكر معرفته بشيء، وسألها بكلمات مبتورة فاترة:

– ماذا تقصدين؟

– أنت تعرف يا عطية.

لم يستطع أن يقول شيئا، فأتى بابتسامة باهتة على وجهه الكالح، وجلس على مقعد بالقرب منه في هدوء.

خرجت والدته العجوز من حجرتها، تتوكأ على عصاها الغليظة، وتعدل من طرحتها السوداء على رأسها، تسأل متعجبة:

– ماذا حدث.. أخبروني؟

نظرت عبير إليها، وأشارت إلى عطية، ثم قالت وهي مازالت في ثورتها:

– اسألي ابنك.

– ماذا يا عطية؟.

لحظة صمت.. عدل عطية من ياقة البيجامة، ثم افتعل الغضب، وقال:

– لا أعرف.. عبير تتهمنا بأشياء لا نعرف عنها شيئا.

اشتد غيظ عبير، وقالت:

– ها أنا قد أنذرتك.. وإياك أن تتكرر.

أطلق ضحكة ساخرة، لا يتجاوز منبعها حنجرته، ثم قال:

– ماذا ستفعلين؟

– لم ولن يكفيني فيك رقبتك.

قالت عبير كلماتها الأخيرة بكل حرقة، أغلقت خلفها الباب بزمجرة شديدة.

كانت "ثريا" زوجة عطية تتابع الحوار في ذهول، لم تعهد في عبير هذا الغضب، وهذه الجرأة في الحديث. أسرعت إلى زوجها، سألته:

– ماذا يا عطية؟.

شهيق طويل، ثم زفير بحرقة، وقال في هدوء:

–كانت مداعبة فقط.

جاء صوت والدته العجوز من آخر البهو، وقالت:

– كيف كانت مداعبتك يا عطية؟

– حاجة بسيطة.. أحببت أن أخبرها أنها مازالت تحت مراقبتي.

– كيف؟.

– أرسلت أحد رجالي.. وأعطى درسا لياسمين، فكانت إصابة خفيفة.

– من ياسمين؟.

– البنت التي تدرس لوائل.

ضربت المرأة العجوز بعكازها على الأرض في زمجرة، وقالت:

– كيف تقوم بهذا العمل الإجرامي.. ألم أحذرك من قبل؟.

اعتدل عطية في جلسته، وقال بصوت عال:

– من المستحيل أن أترك ثروة مثل هذه لولد أبله مثل وائل.

سخرت بهزة من رأسها وقالت:

– أنت مازلت تظن أنه أهطل.

– ما أثار غضبي أنه نجح بتفوق.

– ويجب أن نشرف به.

– ماذا يا أماه.. أنسيت ما أريد أن أفعل لأؤمن مستقبل حسام.

قالت في حدة:

– أمن مستقبل ولدك من عملك، وليس من أموال الآخرين.

تعجب عطية لهذا التحول الكبير في والدته. الآن أصبحت تناصر ابن أخيه، وتخاف عليه من أي مكروه، مما جعله يشعر أن دائرة الحرب تتسع عليه. فقال:

– وماذا لو تزوجت عبير من عبد المنعم؟.

هزت رأسها حسرة، إشارة إلى غبائه، وقالت:

– مازلت في غباءك يا عطية.. حتى لو تزوجته، هذا من حقها.. ووقتها يحق لنا الوصاية على وائل.

صمت عطية، أخذ يمنى نفسه بزواج عبير من أي رجل، أو تموت، حتى يأخذ الوصاية على وائل، وقتها سيبدأ في تنفيذ مشروع البرج الكبير.

قطعت والدته عليه أحلامه، وقالت في لهجة مؤنبة إياه:

– طمعك ورعونتك وغباؤك سيؤدون بك إلى السجن، ويضيع معك كل شيء.

نظر إليها نظرة بلهاء، لكنه استطردت وهي تقوم إلى حجرتها:

– أحذرك يا عطية من أي عمل غبي آخر، وأكررها لك.. وائل حفيدي مثل حسام.. وعليك أن تحمد الله، لأن عبير لم تبلغ البوليس هذه المرة.

دخلت حجرتها، وتركته غارقا في بحر من الندم، يقاوم اختناقا يزحف على قلبه.

في بحور الحيرة والقلق

استرخت عبير بجسدها على مقعد بجوار فراش وائل. تنظر إلى الفضاء من خلف زجاج النافذة. رغم صفاء السماء.. تراءت لها النجوم كليلة، تعاني من جرح دفين. السعادة تغمر قلبها، لما وصل إليها ولدها وائل، لكن سعادة يشوبها مرارة وخوف وقلق من القادم في الأفق. عقلها ملعب كبير، تمرح فيه أفكار كثيرة، تقلقها.. تقتلعها من سكونها.

ماذا يفعل عبد المنعم بعد حادثة ابنته ياسمين؟.. ماذا لو عرف أن عطية وراء نقل عمله إلى مكان بعيد.. ووراء ما حدث لابنته اليوم؟.. هل سيؤثر السلامة وينسحب من حياة ولدها؟.. وماذا عن ولدها الذي لا يرى في حياته غير عبد المنعم وأسرته؟

خرجت منها تنهيدة حارة، حروفها القلق والحيرة. نظرت إلى وائل الراقد أمامها على الفراش، رأته يتحسس الجرح في جبهته، يتأوه في صمت. سألته في لهفة:

– هل يؤلمك الآن يا حبيبي؟

– قليلا يا أمي.. لا تقلقي.

ثم سكت، وراح ينظر في سقف الحجرة، ذهب في تفكير طويل.. سألته:

– فيما تفكر يا وائل؟

– صديقتي ياسمين.. كيف حالها الآن يا أمي؟.

– بخير إن شاء الله.. لا تقلق.

– سوف أذهب إليها في الصباح.

فكرت عبير برهة، ثم قالت:

– ماذا لو ابتعدنا عن عبد المنعم وأسرته بعض الوقت يا وائل؟.

اعتدل وائل من رقدته، لقد سمع شيئا غير مألوف من والدته. ثم سألها في هدوء:

– هل من الفضيلة أن يترك الصديق صديقه في مثل هذه الظروف؟

لم تستطع أن تقول له أن السلامة في الانسحاب من حياة عبد المنعم وأسرته، خوفا من شيء أكبر وأقذر يقوم به عمه عطية. تركته دون إجابة، وراحت تتمدد بفراشها، تاركة الأمر لله، عسى أن يكون القادم أفضل، وتردد في سريرتها: "منك لله يا عطية".

* * *

في صباح اليوم التالي، فوجئت عبير بصوت ينادي من أمام الباب: "صديقي وائل.. وائل" تعجبت عبير، الصوت لم يكن غريب على مسامعها. خرج وائل من حجرته مسرعا، يعدل من ملابسه. ثم صاح:

– صديقي منعم.. مرحبا بكم

لم يصدق أن صديقه يقف بالباب.

ارتمى في أحضانه بكل شوق، فمنذ شهور لم يحظ بلقاء الصباح، لأن عبد المنعم انتقل إلى مكان بعيد بعض الشيء.

ثم خرجت عبير مسرعة هي الأخرى، تتعجب لمجيئه المفاجئ. ألقت تحية الصباح، فقابلها بابتسامة هادئة، وقال:

– صباح النور يا ست أم وائل.

– ألم تذهب إلى عملك اليوم؟

عبث بأنامله في شعر وائل، وقال:

– أخذت أجازة اليوم، حتى أحتفل بتفوق صديقي.

تمتمت عبير بكلمات الشكر، تتعجب لهذا الرجل الذي لا يكل أو يمل من

رسم الابتسامة على وجه ولدها، في الوقت الذي كانت تبحث فيه عن وسيلة تبتعد بها عنه وعن أسرته.

"كم أنت عظيم أيها الرجل". هكذا قالت عبير في نفسها، تعظيما وإكبارا لروح عبد المنعم.

قطع عبد المنعم الصمت، وقال لوائل:

– هيا يا صديقي، استعد للسفر.

سأله وائل في لهفة:

– إلى أين؟.

– سنذهب إلى المحلة الكبرى.

استبشر وجه وائل فرحا، وأسرع إلى داخل المنزل، ليتهيأ للسفر كما قال له.

سألته عبير:

– لم السفر إلى المحلة اليوم؟

ابتسم وقال:

– سوف تعرفين بعد الظهر.

سكتت برهة، ثم قالت:

– كيف حال أستاذة ياسمين ووالدتها؟

– الحمد لله بخير.

– آسفة يا أستاذ عبد المنعم.

– لماذا؟

– لما حدث أمس لياسمين.

– وما ذنبك أنت؟.

– لولا الحفلة التي أقامتها المدرسة..

قاطعها عبد المنعم بابتسامة هادئة، مستسلما لقضاء الله وقدره، ثم قال:

– لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.. عسى أن يكون خيرا يا أم وائل.

هزت رأسها.. مستسلمة هي الأخرى، وقالت في نفسها: "أي خير في هذا يا أستاذ عبد المنعم؟". لم تعرف عبير أن ترد عليه، مازال الخجل والأسف يفيضان من عينيها.

أراد عبد المنعم أن يهون عليها الأمر أكثر، فقال:

– ماذا لو رأيت خطوط رسم القلب مستقيمة؟

– هذه إشارة إلى أنه توقف، وتوقفت الحياة فيه.

– هكذا هي الحياة، لا تسير على وتيرة واحدة، لا بد أن يكون هناك عثرات ومنحنيات، تذكرنا أن كل شيء زائل، وأن سنة التغيير في الكون بإذن الله تعالى قائمة لا محالة.

سكت برهة، ثم قال:

– الحمد لله.. أن عثرة الطريق جاءت بسيطة.

ثم جاء وائل في ملابسه الأنيقة، وركب إحدى عربات الأجرة، والتي استوقفها عبد المنعم. وقبل أن يودعانها، أخبرها عبد المنعم أنه ينتظرها في المنزل عند المغرب، لأمر مهم.

وتركها تفكر.. ما هذا الأمر المهم؟

ليلة سعيدة

النهار طويل.. عبير على مكتبها في متجر المفروشات، تنظر إلى عقارب الساعة قبالتها، تراءت لها عقارب تتسكع في بطء شديد، كأنها تتمرد على الدوران. عقلها مسرح كبير، تتقافز عليه أسئلة كثيرة.

لماذا ذهب عبد المنعم إلى المحلة اليوم.. والبضاعة تأتيه بمجرد اتصال تليفوني منه؟

لماذا اصطحب وائل معه هذه المرة؟. لماذا يطلب لقائي في بيته عند المغرب؟.

لم تجد عبير إجابة لأسئلتها هذه، غير أن تنتظر. كم هي قاسية ساعات الانتظار.

وعند الثالثة، فرغ صبرها، لم يعد لها طاقة للانتظار أكثر من ذلك، فهي تريد أن تعرف إجابة لهذه الأسئلة التي أرقت جلستها. فتركت المتجر للمحاسب أمين، والثلاث بنات اللواتي يعملن معه، وألقت نفسها في أول عربة أجرة مرت أمامها، واتجهت إلى منزل عبد المنعم.

قبل أن تضغط على الجرس، سمعت قهقهة ولدها وائل تأتي من الداخل، تمتزج مع ضحكات الجميع. ابتسمت، وشكرت الله الذي أنعم عليها بهذه الأسرة التي دائما ما تمنح السعادة لولدها. ثم ضغطت على الجرس، أسرع وائل وفتح الباب. علا بصوته فرحا.

– ماما صديقتي.

سحبها إلى الداخل، حيث تجلس ياسمين ممددة ساقها المربوطة أمامها، بجوار والديها، في حجرة الصالون.

جاءت كلمات الترحاب من نرجس وسوسنة من المطبخ، مع رائحة المشويات والمقليات. ثم لفت نظرها للزينة المعلقة في سقف المنزل هنا وهناك، فأدركت أنه

حفل عيد ميلاد أحدهم، ولذلك.. طلب عبد المنعم رؤيتها في المنزل.

بعد كلمات الترحاب، والسؤال عن الأحوال، جلست قبالة ياسمين، وقالت متضاحكة:

– كان يجب أن تخبروني بأمر عيد الميلاد هذا، حتى أحضر هديته.

نظر الثلاثة لبعضهم، ثم ابتسموا دون أن يقولوا شيئا. ثم ذهبت مع عبد المنعم في الحديث عن متجر المفروشات، وعن العمال وأجورهم، وعن الأسعار التي تزيد يوما بعد آخر.

يعلو صوت سوسنة: "هات يا وائل".

ثم يعلو صوت سوسن: "خذ يا وائل"

وائل سعيد بحمل الأطباق من المطبخ إلى حجرة السفرة، وسعيد بإبداء رأيه في تنظيم المائدة، حين تطلب منه سوسنة المشورة.

وبعد قليل، التف الجميع حول المائدة، وبدأت سوسنة في نشر النكات والضحكات، ومداعبة وائل تارة، وأمها المريضة تارة أخرى.

وما أن انتهوا من العشاء، حتى عادوا إلى حجرة الصالون، ثم انهالت الهدايا على وائل، من عبد المنعم وأسرته. فأدركت عبير أن هذه الوليمة احتفالا بتفوق ولدها، وليس عيد ميلاد أحدهم فجادت عيناها بدموع الفرح، وسجد قلبها شكرا لله، وامتلأت امتنانا لهذه الأسرة، التي مدت يدها البيضاء لولدها، وأخرجته من ظلمة الإعاقة، ليكون شيئا تفخر به في المجتمع.

سألتها زوجة عبد المنعم بصوتها الضعيف:

– لم البكاء في يوم نسعد فيه كلنا يا أم وائل؟.

ثم انهال عليها الجميع بالأسئلة: "لماذا البكاء؟".

قالت من خلال دموعها المنهمرة:

– كثير ما تفعلونه من أجل وائل.

ضحك عبد المنعم، ولف ذراعه حول رقبة وائل، وقال:

– وائل صديقي.. وأخ لبناتي.

وهنا استراح وائل برأسه على صدر عبد المنعم، استراح مطمئنا بعد هذه الكلمات البسيطة، كأنه كان ينتظر سماعها. ومسحت عبير دموعها، ثم بدأت سوسنة تعيد للجلسة ضحكاتها.

وبينما هم كذلك.. فإذا بجرس الباب، يأتي برنات خجلى، فأسرع وائل وفتح للطارق:

– السلام عليكم.

– وعليكم السلام.

– الأستاذ عبد المنعم موجود.

– نعم.. أقول له من حضرتك؟.

أسرع عبد المنعم ليستقبل القادم، فإذا برجل ذي هيبة يستند على عصا سوداء، لمع فيها ضوء المصباح، يرتدي بذلة صيفية بنية اللون، ورابطة عنق بني فاتح، على قميص أبيض، وخلفه سيدة تبدو في الستين من عمرها، تتأبط ذراع شاب أنيق، يتجلى الخجل على وجهه.

على الوجوه ابتسامة هادئة، سرعان ما ارتاح لها قلب عبد المنعم، كما ارتاح لها وائل من قبل.

قال الرجل:

– حضرتك الأستاذ عبد المنعم.

– نعم.. تفضل..

– أستاذ دكتور محمد المتولي.

ازدادت ابتسامة عبد المنعم اتساعا، وقال:

– حضرتك غني عن التعريف.. تفضل.

تقدم عبد المنعم ووائل الضيوف إلى حجرة الاستقبال. هز الدكتور محمد رأسه، وابتسم إلى الشاب، ثم قال:

– أكثر الله من أفراحكم.

ابتسم عبد المنعم، وسار بكفه على رأس وائل، وقال:

- نعم.. كنا نحتفل بتفوق صديقي وائل في الابتدائية.

قالت زوجة الدكتور:

– ألف مبروك يا وائل.

ثم قال الشاب الذي كان غارقا في الخجل:

– ألف مبروك يا وائل.. كيف حال الجرح الآن؟.

– الحمد لله بخير.. شكرا لحضرتك.

منذ أن دخل الضيوف، ووائل يعتصر عقله، يريد أن يتذكر. متى وأين رأى ملامح هذا الشاب؟.

وأخيرا تذكر.. إنه الطبيب الذي كشف على صديقته ياسمين في المستشفى، وقام بوضع الرباط على ساقها. بعد كلمات التعارف، قال الدكتور محمد:

– أستاذ عبد المنعم.. لا أطيل عليكم.. هذا ابني الدكتور حازم.

وأشار إلى الشاب الوسيم، الذي يرتسم على وجهه الخجل.

نظر عبد المنعم إليه، وقال:

– أهلا وسهلا.

– جئنا لنطلب القرب من حضرتك في الآنسة ياسمين.

– نشرف بكم يا دكتور.

ابتسم الدكتور محمد، وقال متضاحكا:

– عندما رآها أمس في المستشفى، وقام بربط رجلها، قرر أن يرتبط بها.

بادله عبد المنعم الابتسام، وكرر كلمته:

– لنا الشرف يا دكتور.

في هذه اللحظة، طرقت سوسنة باب حجرة الاستقبال، ثم دخلت تحمل أكواب العصير، وسلمت على الضيوف. فتضاحك الدكتور محمد، وقال:

– طبعا العروسة معذورة، مازالت ساقها في الرباط.

– نعم.. هذه أختها الصغيرة سوسنة، في كلية الهندسة.

فقالت زوجة الدكتور محمد:

– ما شاء الله.. بارك الله فيها.

عادت كلمات الترحاب من جديد، ثم بدأ التعارف يزداد شيئا فشيئا.

وعرف عبد المنعم، أن الدكتور حازم قد حصل على عقد عمل في إحدى الدول العربية، وسوف يسافر بعد عشرة أيام. ولهذا عليه أن يسرع بالرد خلال أسبوع على الأكثر.

ثم استأذن الدكتور محمد وزوجته وولده، بعد أن ترك رقم التليفون مع عبد المنعم.

حينما عاد عبد المنعم للجلوس مع أسرته، نظر في الوجوه، فرآها صامتة متحفزة لسماعه، ولمعرفة شيء عن الضيوف. إلا سوسنة كانت تكتم ابتسامة، تريد أن تطلقها عالية، لكنها أجلتها حتى تسمع أبيها أولا.

قال عبد المنعم:

– الدكتور الذي عالج ياسمين في المستشفى أمس، جاء ليخطبها.

أطلقت سوسنة ضحكة عاليا، وقالت:

– والله كنت أشعر بذلك.

هلل الجميع في هدوء، وانهالت كلمات التهاني على ياسمين، التي غرقت في خجلها.

قبلتها سوسنة، وأشارت إلى قدمها المربوطة ثم قالت:

– أول مرة أرى عريسا يأتي عن طريق رجل مكسورة.

تعالت الضحكات، لكن أم ياسمين أشارت بيدها، فسكتوا.. ثم قالت:

– هل عرفت هو ابن من.. ومن هي عائلته؟

قال عبد المنعم:

– نعم.. هو ابن الطبيب محمد المتولي، أستاذ المخ والأعصاب المشهور.

فتح الجميع فمه، واحتضنت نرجس أختها ياسمين، ثم تلتها أم وائل، وباقي أفراد الأسرة.

لحظات من السعادة والمرح، غرقت فيها الأسرة. أدركت عبير أن الله ينبت الخير من الشر، وأن الحادث كان سببا للحصول على زوج صالح.

وائل يتابع الأحداث والكلمات في صمت، يشعر أن البساط ينسحب من تحت قدميه، فلم يعد محط أنظار واهتمام الجميع، لقد أصبح شيئا مهملا الآن، يشعر أن هناك شيئا مهما يتناقص من حياته، يضيع منه.. ولذلك كان يجلس منطويا يراقب في صمت.

شعرت ياسمين بأن هناك شيئا في نفس وائل.. شيء يغضبه من هذه الخطبة، وعدم موافقته على العريس. خشيت عليه من الاكتئاب، الذي سيعود به إلى الوراء. فكرت في حل سريع رغم المناخ المشحون بالتهاني والتبريكات. ثم قالت:

– أتعرفون.. أن الدكتور وهو يربط رجلي، سألني عن صديقي وائل.

مرت لحظة صمت، تعجب الجميع لهذه الكلمات الغريبة، وسرعان ما تنبهوا للأمر.

ثم استطردت قائلة، وقالت:

– فهو معجب جدا به، لأن وائل أنقذني من الموت، وحملني بذراعه القوية، بعيدا عن طريق العربة الطائشة.

انتبه وائل بشدة، وأرد أن يتحدث عن الواقعة، وكيف أنقذها؟.

لكن سوسنة قاطعته بلهجة سريعة مرحة، وقالت:

– وسألني أيضا يا ياسمين؟.

ردت ياسمين وقالت:

– نعم.. وقال لي أريد أن أصبح صديقكما، فقلت له.. يجب أن أسأل صديقي وائل أولا.

أسرعت سوسنة وقالت:

– أنا قلت إذا فتح لك وائل الباب، فاعلم أنه رضي بصداقتنا لك

ثم نظرت ياسمين إلى وائل، وسألته:

– هل توافق أن يكون صديقنا يا وائل؟.

انبسطت أسارير وائل، ثم قال:

– نعم.. فهو صديقنا من الآن.

هزت عبير رأسها، أكبرت ياسمين على ملاحظتها، وشعورها العميق بما يدور في نفس ولدها.

كما أعجب بها عبد المنعم وزوجته وسوسن، بذكاء ياسمين وسوسنة، لأنهما استطاعتا أن ينتزعا منه الرضا عن العريس، والذي سيدخل حياة الأسرة.

وعادت سوسنة إلى نشر البسمة على الوجوه من جديد، وهم يتناولون الحلوى والفاكهة، حتى امتد بهم السهر إلى العاشرة مساء.

بحث عبد المنعم عن وسيلة يثبت البساط تحت قدم وائل، ليطمئن قلبه أكثر، فلم يجد غير عرض المشروع الذي يفكر فيه منذ أيام. لف ذراعه حول رقبة وائل

الذي يلتصق به أكثر الوقت، وقال:

– اليوم.. كنت أنا ومدير المشروع الجديد في رحلة إلى المحلة الكبرى، لنضع اللمسات الأخيرة في تنفيذ مشروع أفكر فيه منذ فترة، وقد عينت صديقي وائل مديرا لهذا المشروع.

خرجت نرجس من هدوئها الذي تتميز به، وقالت كأنها تعترض:

– ولماذا لا أكون أنا المديرة؟

قال عبد المنعم في لهجة جادة:

– لأن المشروع يحتاج إلى رجل قوي، وصديقي وائل يليق بهذه المكانة.

ادعت نرجس بقسماتها الانهزام، فانتفخ صدر وائل بالهواء، وارتسمت على وجهه ابتسامة الواثق من نفسه.

ثم واصل عبد المنعم حديثه قائلا:

– وعندما عدنا من المحلة، ذهبنا إلى صديق لي يعمل "ترزيا"، جلسنا معه بعض الوقت، استمعنا فيه لكل ما قال، وعرفنا منه معلومات كثيرة عن مهنة التفصيل.

لحظة صمت، رأى عبد المنعم نظرات الاستغراب والاستفسار في عيون الجميع.

قال موضحا كلماته:

– منذ أيام، وأنا أفكر في صناعة ملابس الأطفال، بدلا من شرائها من التاجر.

هزة عنيفة جرت في جسد عبير، أشرق وجهها بابتسامة عريضة، كأنها عثرت على آخر أحلامها المفقودة، وقالت:

– كأنك كنت مع زوجي يا أستاذ عبد المنعم.

اتجهت إليها الأنظار، فاستطردت قائلة:

– كان زوجي يحلم بهذا المشروع، ولم يخبر به أحدا إلا أنا، ولذلك عندما كان

يقيم المنزل الذي نحن فيه الآن، صمم الدور الأرضي ليكون مصنعا للملابس، والدور الثاني للإدارة وبعض المكاتب.

ابتسم عبد المنعم، وقال:

- لقد قمت بدراسة وافية عن المشروع، وعرفت ثمن ماكينات الخياطة، وماكينة الأوفر، والمقص الكهربائي، وجميع مستلزمات المشروع، وعدد العمال وأجورهم، ورأيت أنه سوف يوفر علينا أكثر من خمسين في المائة من ثمن القطعة الواحدة.

سكت برهة ثم قال:

- لم أفكر في هذا المشروع، إلا عندما أصبح لنا زبائن يطلبون الشراء بسعر الجملة، غير أنه سيوفر علينا الكثير، لأننا سوف ننتج ما نحتاجه من بعض الأصناف، حتى نتجنب فائض البضاعة المتبقية، نتيجة فصول السنة المتقلبة، والتي رفض الحاج إبراهيم رجوعها في الشهور الأخيرة.

قالت عبير:

- نعم.. البضاعة الفائضة من موسم الشتاء كثيرة، وأصبحت مبلغا مخزونا لا فائدة منه، إلا في العام القادم، وسوف تباع بأقل الأسعار.

- ولذلك فكرت في مشروع صناعة الملابس.

- على بركة الله.. ما هو المطلوب مني؟

أشار عبد المنعم إلى نرجس، التي تم تعيينها أمينة الصندوق منذ أن بدأوا العمل في التجارة.

قامت مسرعة، وأحضرت حقيبة جلد كبيرة نوعا ما، من حجرة نوم أبيها، ثم وضعتها أمامه.

فتحها عبد المنعم، وأخرج منها دفتر أحوال متجر الملابس، وقدمه إلى عبير، لتطلع عليه، فأبعدته عن يدها، ثقة في عبد المنعم. ثم قدم لها مبلغا من المال، أرباح الشهر.

ردت عبير المبلغ إليه مرة أخرى، ووعدته أن تأتيه بمبلغ آخر، حين تذهب معه إلى الإسكندرية، لشراء ماكينات الخياطة والأوفر، والمقص الكهربائي.

ثم تأهبت عبير للرحيل مع ولدها، وهي تنظر إلى عبد المنعم نظرة تقدير لا حدود لها، لأنه استسلم لأمر الله، فأرضاه الله بما يسعد كل الآباء.

وكأن عبد المنعم شعر بدواخل عبير، فقال:

– أتعرفون.. أحيانا يكون الخير مخبوءا خلف الشر.

نظر الجميع إليه، وانتظروا أن يكمل حديثه. فقال:

– عندما كتب الله لسيدنا عيسى الوجود على الدنيا، اختار له أفضل نساء الأرض طهرا، فكانت السيدة مريم. لكن السيدة مريم حزنت بشدة، وتمنت الموت، وقالت: "ليتني مت قبل هذا.. وكنت نسيا منسيا" وهذا لأنها رأت ظاهر الأمر، ولم يطلعها الله على الخير الخفي الذي تحمله. ولو علمت أنها تحمل في بطنها نبيا، ما حزنت، وما تمنت الموت.

ثم تنفس بهدوء، وقال:

- ولذلك.. لا تجزعوا حين يحل بكم أمر ما، وأعلموا أن كل أمر من الله خير، حتى لو كان ظاهره سوء.

وهنا علقت سوسنة قائلة:

– نعم يا أبي.. بدليل أن رجلا مكسورة، جاءت بعريس.

فضجت حجرة الجلوس بالضحك.

وحمل وائل الهدايا التي منحها له عبد المنعم وأسرته، ولم ينس هدية صديقته رحمة، التي وعدها بها أمس، وعاد مع والدته إلى منزله.

أحلام جميلة

أنبتت السماء نجوما، كانت غائبة عنها منذ زمن، غنت على أغصانها بلابل الأمل. نسمات الأيام هادئة لينة مطمئنة، تتوهج لها النفس انشراحا. منزل عبد المنعم يفيض بالأفراح.

منذ أيام أعلنت خطوبة ياسمين، وسافر خطيبها الدكتور حازم إلى بلد عربي، واختارها الدكتور باسم صاحب مركز تحدى الإعاقة، لتشغل منصب نائب لمدير المركز، لإجادتها العمل في المركز، مما زاد من شهرته وسمعته، وذلك منذ أن ألقت كلماتها في حفل مدرسة التربية الفكرية، وتوافد عدد كبير من الأسر على المركز، ولما تقدمه من خدمات لمتحدي الإعاقة، وتتويجا لرحلتها مع وائل.

واجتازت نرجس امتحاناتها النهائية بتقدير امتياز، وكذلك سوسنة، اجتازت المرحلة الثانية في كلية الهندسة بامتياز.

أما عبير.. كانت تنتظر الإجراءات الأخيرة من تحقيق حلمها، وهو امتلاك مصنع لملابس الأطفال. وبذلك تكون قد صنعت لولدها عددا كبيرا من المعارف مستقبلا، سواء كانوا عمالا، أو عملاء، يكونوا له سندا بدلا من عائلته التي خاب ظنها فيها، والتي تطمع فيما يمتلك من أموال، بجوار عائلة عبد المنعم التي تتخذه ولدا لها، فها هم قد انتهوا من تجهيز الدور السفلى المنزل، ليكون جزءا منه مشغلا، والجزء الآخر معرضا للمنتجات. أما الدور الثاني فاتخذوا منه مكتبا للإدارة، غير حجرتين لمخازن القماش والخيوط ومستلزمات الماكينات. حجرة مخازن القماش، لم تستوعب الكمية التي اشتروها كلها، فاتخذ عبد المنعم من بيته مخزنا احتياطيا.

في وقت فراغ وائل، كان عبد المنعم يشركه في العمل معه، ليعرف مبادئ السوق والعمل فيه، ليكون له قاعدة في المستقبل، يستطيع مواصلة العمل على ضوئها. واصطحبه معه ووالدته إلى الإسكندرية، وأشركه في شراء ماكينات الخياطة

وماكينات الأوفر، ومقص كهربائي، ومستلزمات الخيوط. كما اصطحبه إلى مدينة المحلة الكبرى، ودار به على مصانع القماش، واشتروا كميات كبيرة، تكفي لإنتاج ثلاثة أشهر، حسب الخطة التي وضعها عبد المنعم. وأجلسه مع الأسطى "عبدالرءوف وهدان"، الخياط الذي سيدير مشغل الملابس، والمسئول عن توريد العمال، ليعرف منه الكثير عن طبيعة العمل، وأسماء الآلات ومصطلحاتها المتداولة بين العمال.

ورغم انشغال وائل في تجهيز المشغل مع عبد المنعم ووالدته، إلا أنه لم يهمل دراسته ولو لحظة، لقد كان يتحدى الوقت بكل ما فيه من عزيمة. فها هو يستذكر دروسه مع سوسنة وياسمين بهمة ونشاط، لأن امتحانات المرحلة الثانية من الإعدادية على الأبواب.

كما أنه يواظب على التمرين في النادي، على لعبة الكاراتيه التي يحبها، وأعطى لنفسه أجازة من تدريبات سباق الدراجات لضيق الوقت، لأنها ليست مجدية في هذه المرحلة.

الوقت مشحون بالعمل الجاد، فها هو عبد المنعم، يقضي ساعات النهار بين متجر الملابس، والإشراف على العمال في تجهيز المشغل، حتى أنه أوكل إدارة المتجر إلى ياسين وأخته أكثر الوقت. وكذلك عبير، تركت إدارة متجر المفروشات إلى المحاسب "أمين"، وتفرغت أكثر الوقت في بناء حلم كانت تتمنى رؤيته منذ زمن.

وأخيرا تم تجهيز المشغل. ساعات معدودة هي ساعات الليل. بعدها سوف يتم افتتاح المشغل. سوف تنطلق أحلام الجميع، مع أول دورة لماكينات الخياطة. سوف يحتفظ عبد المنعم بأول فستان أطفال يتم إنتاجه، ليكون لأول حفيدة له. وكذلك عبير سوف تحتفظ بأول بذلة أطفال من المشغل، لتكون هدية لأول حفيد لها، بعد أن يتزوج وائل. كثيرة هي الأحلام.

خلعت عبير عبوسا كان يلتصق بوجهها، تناست أخاديد الحزن التي أدمت قلبها، أقبلت على الحياة أكثر. خلعت اللون الأسود.. اشترت فستانا جديدا يليق بحيويتها التي تفجرت فجأة. فستان يشبه الفساتين التي كان يحبها زوجها عليها، ذو

ألوان سماوية بخطوط رفيعة ناصعة الزرقة. وأهدت ياسمين وسوسنة ونرجس ثلاثة فساتين بنفس اللون، حتى يحضرن بها لحظة الافتتاح.

وكذلك اشترى عبد المنعم بذلة جديدة، زيتونية اللون، تليق به كرجل أعمال، وأهدى مثلها إلى صديقه وائل، والذي سيلتصق به وقت الافتتاح. ونام الجميع، وأحلامهم ترفرف في الآفاق.

الأحلام تحترق

الساعات هادئة مطمئنة. النفوس تغط في أحلام وردية، تجاوزت السماء. لكن رنين الهاتف أزعجها.. فطارت من الجفون.

تعجب عبد المنعم.. تساءل وهو ينهض من فراشه من يطلبه الآن عبر الهاتف قبل الفجر.. وماذا يريد؟.. رفع سماعة الهاتف، فإذا بصوت سريع اللهجة، يقول له:

– حضرتك الأستاذ عبد المنعم؟

– نعم.

– المتجر يحترق.

وأغلق الهاتف.. مرت لحظة توقفت فيها حواسه.. ثم استعاد إدراكه، عندما رأى سوسنة تقف أمامه، تهز ذراعه وتسأله مضطربة:

– ماذا يا أبي؟.

قال في همس، كأنه يحدث نفسه:

– المتجر يحترق.

سرعان ما ارتدى ملابسه، تسابقت معه سوسنة في ارتداء ملابسها.

حاول أن يستبقيها مع أخواتها، لكنها أبت أن تتركه وحده، فخرجا من المنزل، تلاحقهما كلمات ياسمين:

– انتظرا.. سوف أحضر معكما.

ردت عليها سوسنة:

– لا وقت.. سوف أطمئنكم بالتليفون.

وراح عبد المنعم وابنته يقطعان الشارع الطويل في خطوات سريعة، يتعثران في الطريق المظلم أحيانا، تتلفت العيون يمينا ويسارا في لهفة، بحثا عن عربة أجرة، أو أي عربة قادمة من هنا أو هناك.. سألته سوسنة وهي تلهث:

– ألم يقل لك أي متجر.. المنسوجات أو الملابس؟

رد عليها بصوت متقطع:

– لم يقل يا سوسنة.

وأخيرا.. لمحا عربة ربع نقل قادمة من بعيد، أشارا إليها إشارة الملهوف، فتوقف السائق، عندما تبين أنهما رجل وفتاة. طلبا منه أن يصطحبهما إلى أول الشارع، أو إلى ميدان ستوتة. ركبا معه، وانطلق السائق بسرعة أكثر.

وقبل أن يصل بهم إلى أول الشارع، لمحوا دخانا هائلا، يتصاعد من منزل أم وائل، وألسنة اللهب، تغلب خراطيم المطافئ، وتزحف على الدور الثاني. صرخت سوسنة، وقالت:

"وائل.. عبير"

توقف السائق، ونزل عبد المنعم وسوسنة.

الزحام شديد، صرخات الناس مع نفير العربات تملأ الفضاء.

حاول عبد المنعم أن يشق الزحام، يريد أن يصل إلى باب المنزل، لينقذ صديقه وائل ووالدته.

لكنه اطمأن بعض الشيء، حين سمع أحد الواقفين يقول لصاحبه:

"الحمد لله.. أن المنزل أصبح خاليا من سكانه"

بحث عبد المنعم وابنته عن عبير ووائل، حتى عثر عليهما وسط جمع من الناس.

عبير جالسة على الأرض، لقد أعياها الصراخ، جلست تشاهد النار وهي تأكل الحلم الجميل، تودعه بصرخات منهكة، ودموع غزيرة. وائل يأخذ رأسها في صدره، يحاول أن يهدئ من روعها، رغم أنه لا يقل عنها صراخا وعويلا، لكنه عويل صامت.

ارتمت عليها سوسنة، احتضنتها. ثم غابت عبير عن الوعي، وتم نقلها إلى المستشفى.

عبير في غيبوبة

وعند ظهر اليوم التالي.. خرجت الدكتورة نرجس من حجرة العناية المركزة، على قسماتها علامات الحزن والأسى. تلقفتها العيون، ولاحقتها الأسئلة.

"كيف حالها الآن.. وماذا يحدث بالداخل.. هل أفاقت من الغيبوبة"

هكذا سألها والدها وسوسنة ووائل، وكذلك عدد من رجال عطية الذين يقفون بعيدا عن باب حجرة العناية المركزة. تماسكت الدكتورة نرجس، وقالت في حروف مقتضبة:

– أدعو لها الله.

ثم أجهشت بالبكاء، وألقت رأسها في صدر أبيها، فاحتضنها وسحبها بعيدا عن أسماع الحاضرين، فقالت له:

– مسكينة.. أصيبت "بجلطة".. توقفت الحركة في ذراعها الأيسر.

أغمض عبد المنعم عينيه، حاول أن يتغلب على دموعه، احتضن ابنته مرة أخرى، واخرج تنهيدة حارة، وهو يردد: "رحمتك يا رب".

بعد الظهر بساعة، خرجت عبير من العناية المركزة، إلى حجرة مجاورة. ليس منها إلا شهيق يدخل وزفير يخرج. يتصل بذراعها خرطوم رفيع، ينتهي بزجاجة للجلوكوز، وآخر بكيس الدم، تغمرها نظرات الواقفين حولها، بالدموع والشفقة.

وائل عاجز أن يقول شيئا.. أو يفعل شيئا، يستند برأسه على كتف سوسنة بين الحين والآخر، كأنه يستمد منها تجلده.

ثم جاءت عبير بهمهمات غير مفهومة. تنبه لها الواقفون حولها. رددت حروف اسم ابنها وائل بصعوبة بالغة. اقترب وائل منها وقال:

- ماما.. أنا هنا.. أنا بجوارك.. كلنا بجوارك.. أفيقي يا أمي..

اقترب أحد الرجال من وائل، لف ذراعه حول رقبته، وأراد أن يسحبه بعيدا عن

والدته.. شعر وائل بأشواك لفت رقبته، فنظر إلى صاحبها، رآه أحد أقاربه.. شعر أن جذوره تمتد في الهواء، فسحب نفسه منه بهدوء، وابتعد عنه، راح يلقي برأسه في صدر عبد المنعم، فهنا يجد الأمن والأمان.

نظر الرجل إلى عبد المنعم في غيظ، حاول أن يقول شيئا.

عطية كان يقف بعيدا في ركن الحجرة، مع عدد من أفراد عائلته، يتابع حركات عبد المنعم وابنته ووائل، في عينيه نظرات غريبة، نظرات المفترس الذي ينتظر لحظة الانقضاض على فريسته.

أشار عطية للرجل، فهم من الإشارة أن يصمت، وأن لا يفعل شيئا؛ فكتم الرجل غيظه من عبد المنعم، واكتفى بنظرات غضب صامتة، ثم غادر المكان، وذهب حيث يقف عطية ورجاله.

ساد الصمت الحجرة.. إلا من ابتهالات القلوب بالشفاء لهذه المسكينة، وهمهمات عبير التي تأتي بها من وقت لآخر. ثم تنبه الجميع، على وقع عصا تقطع طرقة المستشفى، قاصدة الحجرة، وقال في شيء من الغضب الدفين:

– ما الذي أتى بك يا أمي؟

رمقته بنظرات الاستنكار، ولم ترد بشيء، ثم أشاحت بوجهها عنه، ومضت في طريقها، حتى جلست على طرف الفراش، بجوار عبير. سلطت المرأة العجوز عينيها في وجه عبير. نظرات حانية، قرأ فيها عبد المنعم كل كلمات الندم. ثم دموع منهمرة وفجأة.. وضعت يدها على صدر عبير، وقالت بصوت هامس:

– أفيقي يا عبير.. أفيقي ولو لحظة.. أسمع منك كلمة الغفران.. سامحيني يا ابنتي.

استشاط عطية غضبا، خشي أن تسهب والدته في كلمات أخرى، تكشف بها ستره. ترك وقفته بين جمع من أفراد عائلته، وجاء بخطوات سريعة، ليسكت والدته قبل أن يفلت لسانها بشيء. لم تلتفت إليه، وظلت ترمي عبير بنظرات الشفقة. لكنه لم يقل شيئا.

لقد هتفت عبير باسم ولدها واضح الحروف هذه المرة، رغم نبراته الواهنة، ثم

فتحت عينيها.. دارت حولها، فاصطدمت بوجه عطية.. هذا الوجه الكالح الذي يخلو من الألفة والرحمة، عليه ابتسامة مستأسدة دفينة، ينتظر اللحظة التي يكون فيها وصيا على وائل.

قشعريرة جرت في بدنها، ومرارة جرت في حلقها، حاولت أن تبلعها بصعوبة.. لكنها أبت أن تنزل جوفها. واصلت المرور بعينيها، عثرت على وجه المرأة العجوز، فلم تعرها اهتماما، ثم توقفت على وجه عبد المنعم الذي مازال يحتضن وائل، وسوسنة التي تلتصق به.

رفعت يمينها قليلا، فاقترب عبد المنعم إليها برأسه، أمسكت كفه، ضمتها إلى كف وائل، وأشارت إلى سوسنة، فاقتربت منها أكثر، لملمت أكفهم معا، ونظرت إلى عبد المنعم نظرة الضعيف المنكسر، قرأ فيها كل معاني الرجاء، فطمأنها عبد المنعم بهزة من رأسها، واحتضن وائل أكثر.

في هذه اللحظة، تسلل عطية إلى مكتب الطبيب المشرف على علاجها، واستطاع أن يأخذ منه ورقة تفيد بالحالة المرضية التي عليها عبير، وأنها سوف تظل في غيبوبة وقتا طويلا.

وائل يبكي:

- أمي.. أفيقي يا أمي.. أفيقي يا صديقتي.. سوف نعيد المشغل من جديد

سوسنة تترجاها.

- أم وائل.. أمامنا الكثير.. سوف نفعله من أجل وائل.

المرأة العجوز تضرب عصاها في الأرض.. تبكي بشدة، ندما على ما كان منها تجاه عبير وولدها. مازالت تمني نفسها بسماع كلمة غفران.

وسط هذا الجو المشحون بالأحزان، شعر عبد المنعم بيد غليظة تربت على كتفه، ثم تجذبه من ذراعه. التفت إلى صاحبها، ظنا منه أنه سوف يجد كلمة عزاء. فإذا هو عطية بوجهه الجامد، يقول له:

- أظن وجودك هنا لا مبرر له.. خذ ابنتك وارحل الآن.

لم يصدق ما سمعه، أعادت الكلمات بعضا من إدراكه. حاول أن يصرخ في وجهه، ويسأله:

"أي قلب بين أضلعك أيها الرجل.. ألم يخشع لهيبة المرض؟!".

لكن عطية لم يمهله لكي يرد بشيء، وقال في عنف أشد:

– ألم تسمع ما قلته لك؟!.

سرعان ما جاء رجال عطية، ومنهم "نوفل"، وأحاطوا عبد المنعم وابنته، وأبعدوهما عن فراش عبير. ظلوا يدفعونهما حتى باب الحجرة.

تنبه وائل.. نادى.

- منعم.. سوسنة.. أتتركونني الآن؟!

هتفت سوسنة بأعلى صوتها: "وائل.. وائل".

حاول وائل أن يتحرك ناحية الباب، لكنه وجد كتلا بشرية تمنعه من الحركة.

ظل يصرخ بأعلى ما فيه. صرخاته تتلاشى شيئا فشيئا عن مسامع سوسنة وعبد المنعم، كلما دفعه الرجال بعيدا عن المكان، حتى أصبح خارج المستشفى هو وابنته.

وجد عبد المنعم أنه لا فائدة من المقاومة للبقاء، أو المساومة مع هؤلاء. أشار إلى إحدى عربات الأجرة. لكن سوسنة وقفت مكانها، رفضت أن تركب العربة، ونظرت إلى والدها في غضب.. كأنها تقول له: "هل من المروءة أن نترك وائل ووالدته في هذا اللحظة.. ألم يكن من الواجب أن نأخذه من هؤلاء الذين لا يحملون له أي عاطفة؟!"

قرأ نظراتها.. فطوق رقبتها بذراعه، وسحبها في صمت إلى عربة الأجرة، جاورته في الجلوس.

لا يستحق الحياة من ينكسر أمام العثرات.

سحابة معتمة رانت على القلوب، وتجلى الحزن على الوجوه، وأثقل الصمت أحزان الصدور. جاء اليوم الثاني، ومازال السكون يخيم على منزل عبد المنعم وأسرته.

سوسنة لم تخرج من حجرتها، ولم تذهب إلى الجامعة، ظلت أسيرة حزن عميق. كذلك ياسمين تشاركها السكون في الحجرة، ولم تذهب إلى عملها في مركز الدكتور باسم. أما عبد المنعم فكان في أجازة من عمله الحكومي لمدة أسبوع، حصل عليها قبل أن يحترق المشغل.

عبد المنعم أكثرهم حزنا، لأنه يشعر بقيمة وحجم خسارته الحقيقية إثر هذا الحريق. لقد وضع كل ما كان يملكه في تنفيذ مشروع المشغل، حتى أنه أخذ من رأس المال الخاص بمتجر الملابس، أملا في ربح أكثر، لتأمين مستقبل بناته.

والآن.. وبعد هذا الحادث المؤلم.. كيف يجهز بناته المقبلات على الزواج.. ومن أين يأتي بعلاج زوجته الذي يكلفه مبلغا كبيرا كل شهر؟ وخصوصا أنها دخلت في حالة غسيل كلوي.. يومان كل أسبوع، وهذا يكلفه أكثر من طاقته. وهو عاجز لا يستطيع أن يفعل شيئا.

أما نرجس.. كانت أكثر حظا من أفراد أسرتها؛ فعملها كطبيبة في المستشفى، ساعدها على الخروج من دائرة الحزن بعض الوقت، غير أنها تطمئن على عبير، طول النهار، وتخبرهم باستمرارها في غيبوبتها. ثم تصيبها عدوى الصمت حين تعود إلى المنزل، فتتكوم بجوار والدتها المريضة، التي تكتوي ألما لمرض صديقتها عبير، وتتلوى شفقة على وائل الذي لم تره.

في نهاية اليوم التالي.. تساندت زوجة عبد المنعم على الحائط، عبرت البهو الواسع بخطوات بطيئة، دخلت حجرة الصالون. عبد المنعم يتكوم في ركن أريكة كبيرة. مسحت على كتفه، وقالت:

– إلى متى يا أبو نرجس؟

رفع رأسه، وتنهد طويلا، قال في تلك التنهيدة كل ما يؤلمه. فقالت:

– لا شك أن الأمر صعب.. لكن لو استسلمنا للأحزان، سوف يعود علينا بما هو أسوأ.

نظر إليها نظر المغشي عليه، كأنه لا يعرف مقصدها، فاستطردت قائلة:

– هل يعجبك انقطاع ياسمين عن العمل، وانقطاع سوسنة عن الجامعة، حتى الطعام، لم يتناولا شيئا منذ أمس.

رفع رأسه، وقال بصوت أشد حزنا:

– الجرح كبير يا أم نرجس.

– هل نستسلم؟.

تنهيدة أخرى، خرجت من صدر عبد المنعم.

قالت زوجته:

– ألم تقل لي يوما.. لا يستحق الحياة من ينكسر أمام العثرات.

نظر إليها.. أكبرها في نفسه.. لقد ذكرته بهذه الجملة التي دائما ما يرددها كلما ضاقت به الحياة. قالت:

– قم يا أبو نرجس.. خذ بيد بناتك.. وأخرجهن من بوتقة الحزن التي تقتلنا جميعا.. الحياة لا تقف عند خسران شيء.. هكذا تعلمت منك.

وقفت أمامه، ومدت يدها الضعيفة، فقبلها وقام معها. أسندها إلى حجرة البنات.

سوسنة تتكوم في أبعد ركن على فراشها، تدفن رأسها في ركبتيها، وياسمين قبالتها تتمدد على سريرها. تختلفان في الجلسة، ولكنهما تتفقان على الحزن في صمت.

قامت ياسمين، ارتمت في صدر أبيها، فربت على ظهرها في حنان. أما سوسنة، ظلت مكانها، رمقته بنظرة خاطفة، قرأ فيها غضبا منه. اقترب منها، حاول أن يسحبها من جلستها، لكنها رفضت. أرغم قسماته على الابتسام، فخرجت ابتسامة جريحة، وقال:

– لماذا يا سوسنة؟.

– أنا غاضبة منك؟.

– ولماذا لا نتناقش؟.

أقامت برأسها من ركبتيها، وقالت في صوت يخنقه البكاء:

– أنت فرطت في وائل.

جلس بجوارها، وسألها بهدوء:

– كيف.. وأنت كنت شاهد عيان، ورأيت بعينك كيف احتجزوه، وكيف دفعونا خارج المستشفى.

– أنت لم تقاوم.

– المقاومة ليست في صالحنا.. غير أن ليس لنا حق في المقاومة.

– وهل نترك وائل بهذه السهولة؟

– يا سوسنة.. القانون لا يعترف بصلة الروح والمودة التي تربطنا بوائل، لأنها لا تكتب في الأوراق، ولكنه يعترف بصلة القرابة.

سكتت سوسنة، وراحت تتمتم مزمجرة، تلعن القوانين الوضعية التي لا تعترف بصلة الأرواح، كما تعترف بصلة القرابة.

قالت ياسمين:

– أتعرف يا أبي؟

– ماذا يا ياسمين؟.

– أشد ما يحزنني.. هو الخوف من عودة وائل إلى نقطة الصفر، ويضيع منه كل ما تعلمه في العامين الماضيين.

– هذا ما فكرت فيه يا ياسمين، وخشيت مثلك تماما، لكن هناك إحساسا بأن وائل سوف يتغلب على كل ما يتعرض له من ضغوط، لأنه أصبح يمتلك إرادة قوية كما تعلمين، ومن الصعب أن يزرع فيه عمه أو يوهمه بأنه معاق، كما كان يريد في أول حياته. غير أن جدته تغيرت، وأصبحت في موقف يعارض أطماع ولدها عطية.. وهذا ما لمسته من نظراته عندما كنا في المستشفى.

– أتمنى ذلك يا أبي.

سألت سوسنة:

– هل سنرى وائل مرة أخرى يا أبي؟.

– لا شك في ذلك يا سوسنة.. لأن الإنسان بطبيعته تواق إلى نفسه الحقيقية، وإلى من يشعره بذاته، ووائل يفتقد كل هذا في عائلته، ولم يجده إلا عندنا.

– متى يا أبي؟.

– إذا أتيحت له الفرصة.. سوف يأتي بلا شك.

لاحظ عبد المنعم أن زوجته غائبة عن الحوار.

التفت إليها.. رآها تغمض عينيها، تحاول أن تقاوم ألما يفتك بأحشائها.

"أم نرجس.. أم نرجس".

ذهبت في غيبوبة.. حملها إلى المستشفى.

سجين في بيت العائلة

رغم نسمات الصيف.. الغيوم تتكاثف في السماء بشدة. القلوب تموج في ظلمات، كضرير لا يعرف لخطواته هدى. والأفق بعيد.. يمتد إلى ما لانهاية. الغضب قادم لا محالة.. والقلوب تتوجس. وائل يجلس على طرف الفراش بجوار والدته، يقاوم النوم، يبدو عليه الوهن الشديد. جدته تمد يدها إليه بشيء من الطعام، يبعد وجهه عنه، فتقول:

– يا حبيبي.. أنت لم تأكل شيئا منذ يومين.

يجيبها بتنهيدة طويلة. تأخذ رأسه على صدرها، عسى أن يطاوع النوم، فينام ولو بعض الوقت.

لكن.. كيف ووالدته في غيبوبتها.. وكيف يأخذه النوم وقد طردوا عبد المنعم وابنته؟

قالت جدته:

– ماذا لو ذهبت إلى البيت يا وائل؟

هز رأسه بالرفض.

قامت من مكانها، وسحبته من ذراعه، وقالت:

– والدتك نائمة الآن، تعال نغير ملابسنا، ونعود بسرعة.

قام وائل، مسلوب الإرادة. فمن له غير جدته بعد أن طردوا عبد المنعم وسوسنة، وبعد ذهاب والدته في عالم اللا وعي.

قبل أن يرحل.. نظر إلى والدته طويلا، لا يعرف لماذا؟. هل كان يريد أن يحفظ ملامحها من جديد.. أم يشعر أن شيئا ما سوف يمنعه عن رؤيتها بعد ذلك؟.. ثم نظر حوله، فوجد رجلين من أقاربه، لم ترتح نفسه لنظراتهما، لكنه سار مع جدته، دون أن

يسأل.. أين عمه عطية؟

على باب المستشفى، وجد رجلين آخرين من أقاربه، يقفان بجوار عربة أجرة. ورجلا ثالثا يجلس على عجلة القيادة، يبدو أنهم كانوا في انتظار جدته، لأنها رحبت بهما.

"تفضلي يا حاجة". هكذا قال أحدهم وهو يفتح باب العربة. قالت:

– سوف نذهب إلى البيت، نغير ملابسنا ونعود.

– نعم.. نحن هنا تحت أمركم.

وركب وائل بين جدته ورجل منهم، أما الرجل الآخر جلس بجوار السائق.

انطلقت بهم العربة.. الشوارع باهتة، تمتلئ بالبشر، ومحلات متحركة. أغمض وائل عينيه، زاهدا في كل شيء.. وفجأة.. وجد نفسه أمام منزل عمه عطية.

يا إلهي.. هذا البيت الذي يكرهه بكل ما فيه من أشياء، هنا حسام ابن عمه الذي كان يضربه، ويسخر منه كلما رآه.

انتفض.. حاول أن يقول شيئا. لكن جدته طمأنته، ولفت ذراعها حول رقبته. وعندما نزلوا من العربة، أحاطه الرجلان، وأسرعوا به داخل المنزل. الذبائح لا تقاوم حين تساق إلى المجزر، لأنها لا تعرف إلى أين تساق.. وما هو المصير؟. أما هو فيساق إلى مصير بائس عاشه من قبل، ورغم ذلك لم يقاوم، بعد أن فرغت الدنيا من جذوره كلها، وبعد أن تركه عبد المنعم وأسرته فريسة لعائلته.. هكذا كان يظن.

صعدوا به درجات السلم.. مروا سريعا من أمام الدور الثاني. حسام ووالدته يقفان أمام الباب.. لم يفهم نظراتهما الصامتة. فتح أحد الرجال باب الدور الثالث، ثم دفعه الآخر داخل الشقة، وسمع صوت المفتاح وهما يغلقان عليه الباب.

نظر حوله.. المكان ليس غريبا عليه، الغبار يعلو كل شيء. ألقى جسده على كنبة في بهو الشقة. عقله مرتع واسع، ترمح فيه أسئلة كثيرة.

لماذا جاءوا بي إلى هنا؟.. هل يأتي حسام الآن؟

توقف عقله عند حسام.. وتساءل: "ماذا يفعل معه.. هل يقاومه ويضربه؟. كيف.. ولم يكن له سند بعد مرض والدته، وبعد أن تركه عبد المنعم وأسرته؟.. أم يترك له نفسه.. يفعل ما يشاء كما كان يفعل في السابق؟

لم يجد وائل إجابة لأسئلته هذه، غير تنهيدة يأس طويلة. ثم سمع صوت جدته تئن درجات السلم تحت وقع عكازها، تنادي بنبرات اللهفة والانفطار: "وائل.. حبيبي وائل".

صعدت الدور الثاني، ومازالت في هتافها. استقبلها حسام، لم يستطع أن يجيبها عندما سألته:

– أين وائل يا حسام؟

يبدو أن هناك أوامر للطفل بعدم الرد على هذا السؤال. اغتاظت أكثر.. نادت على ولدها في زمجرة:

– عطية.. أخرج وكلمني يا عطية.

بعد لحظات.. خرج عطية من حجرة نومه بوجهه الكالح، وابتسامته الجامدة، تسبق خطواته برودة الثلج، تتبعه زوجته مضطربة النظرات.

قالت والدته:

– أين وائل يا عطية؟.

قال بهدوء بارد:

– وماذا تريدين من وائل يا أمي؟.

تعجبت لسؤاله، بل وأزعجها بشدة، وقالت:

– حفيدي.. ولي الحق أن أعرف أين هو؟.

ابتسامة ساخرة ارتسمت على وجه عطية، كأنه يقول لها: "منذ متى وأنت تتلهفين على وائل.. ألم يكن ابن عبير التي كنت تكرهينها، والتي تزوجت ابنك دون رغبتك".

قرأت المرأة العجوز معنى ابتسامة عطية، فقررت الهجوم عليه، ومواجهته بما يقلق تفكيرها:

– لم أتخيل أن تلوث يدك من أجل المال يا عطية.

تغيرت ملامحه، وتقلصت قسماته، ثم قال مندفعا:

– وماذا كنت أفعل وهي تبعثر أموال أخي على مشروع فاشل، مع رجل لم يعرفنا أو نعرفه؟

– أنت تحاول أن تجد مبررا لأطماعك وجرمك.. لكن لن أسامحك.

لم تهتز له جارحة، فاستطردت قائلة:

– قل لي أين وائل؟.

قال في زمجرة:

– في الدور الثالث.

وناولها مفتاح الشقة التي بها وائل.

فالتقطته مسرعة، وهي تسأله:

– لماذا وضعته بالطابق الثالث؟.

لم يجبها.. فراحت تواصل نداءاتها وهي تصعد درجات السلم.

"وائل.. حبيبي وائل".

أخذته في صدرها بشدة. هل هو الحنان المتأصل في قلوب الجدات حقا.. أم هو مجرد حالة سوف تنتهي آجلا أو عاجلا؟.ساير حنانها رغم توجسه منها. قالت:

– لا تخف من أحد، أو من شيء.

رفع رأسه من صدرها، وقال:

– هيا.. غيري ملابسك يا جدتي.. حتى نعود إلى أمي.

– لك ما تشاء.

وقامت المرأة العجوز، واتجهت إلى الباب، ففوجئت بولدها عطية يفتح الباب في عنف.

سألها:

– إلى أين؟.

– أغير ملابسي، ثم نعود إلى المستشفى.

ابتسامة ساخرة، ارتسمت على وجه عطية، ثم قال:

– لا.. ليس هناك خروج من هنا.

تعجبت.. وقالت:

– ماذا تقول؟

– ما سمعت يا أمي.

– وعبير.. من يرعاها؟

– لا شأن لك بهذا.. سوف أتولى أمرها.

– ووائل؟!.

– سيكون معك هنا، حتى أتمم أموري.

– أنت مجنون.

لم يرد عليها، وألقى نظرة على وائل، كان فيها كل معاني التشفي ونشوة الانتصار.

ثم خرج، وأغلق الباب خلفه بإحكام، لم يأبه بكلمات الوعيد من الله التي تجهر بها والدته.

رقص الشيطان. فازدهرت الأرض في أعين الظالمين وازينت. وتمادوا حين غاب أهل الحق.

ونسوا أن الله يمهل ولا يهمل. أصبح الطريق ممهدا أمام عطية. استغل مكانته الوظيفية، وأصدقاءه في المصالح الحكومية، أصحاب الذمم الخربة، ومن هم على شاكلته، وأسرع في استخراج قرار الوصاية على وائل.

بعد أن حصل على ورقة بانتساب وائل إلى مدرسة التربية الفكرية. واستخرج شهادة من المستشفي الحكومي، تفيد بعدم أهلية وائل بالتصرف في أمواله لإعاقته العقلية، وبعدم أهلية والدته بالوصاية على ولدها. وبهذه الأوراق، استطاع بيع متجر المفروشات، وإيقاف العمل بمتجر الملابس ثم تصفيته، وبيع عربة الأجرة، والاستيلاء على مبلغ كبير من رصيد وائل في البنك، عدا وديعة بمبلغ كبير، تدر عليه ربحا لا بأس به.

وبدأ عطية في بناء برج سكني كبير، يؤمن مستقبل ولده حسام، بعد أن ضم قطعة الأرض الخاصة بوائل، إلى أرضه، ليصبح أكبر برج في مدينة طنطا.

* * *

انشغل عطية في بناء حلمه، لم يعد له حاجة عند عبير وولدها، ولذلك لم يذهب إلى المستشفى.

في مكتب استأجره بجوار البناء، جلس عطية يستقبل الزبائن، الذين سيشترون شققا في البرج الكبير. دخل عليه المهندس "توفيق" على وجهه علامات السعادة.

– أهلا باشمهندس.. كيف حال العمل الآن؟

ابتسم توفيق ابتسامة الرضا عن العمل، وقال في خيلاء:

– كله تمام يا أستاذ عطية.. تم الانتهاء من أعمدة وسقف الدور السابع.

سكت عطية لحظة، ثم نظر إلى المهندس. قرأ المهندس ما يدور في رأسه، وابتسم في خبث. قال عطية:

– ماذا لو زدنا دورين يا باشمهندس!؟.

مط المهندس شفتيه لأسفل، مصطنعا الغضب، وقال في هدوء:

– التصريح بستة أدوار فقط.. وأنت تعرف أننا تجاوزنا بالدور السابع.

– هل البرج يتحمل الإثنين أم لا؟.

– يتحمل.. وإذا كنت مصمما على دورين، هناك اتفاق آخر.

– ما هو؟.

– لي ٢٠% على كل دور.

علا عطية بصوته خفيفا، وقال:

– كثير يا باشمهندس توفيق.

– لا تنس أننا نخالف ثلاثة أدوار.

– أنت طماع جدا يا هندسة.

قهقه المهندس عاليا، وردد كلمته ساخرا: "طماع!"

قال عطية:

– ١٠% تكفي.

– أوافق يا حاج.. على أن يكون لي شقة.

– لم أر طماعا مثلك يا باشمهندس.

قال ضاحكا:

– أنا طماع يا حاج!.

- عموما.. ابدأ العمل.

ابتسامة الظافر الهادئ، تجلت على وجه المهندس، وهو يغادر مكتب عطية.

* * *

وائل يعذبه الشوق إلى والدته، يود الاطمئنان عليها. ولكن كيف وعمه يغلق عليهما الباب بإحكام، ويأتي لهما بالطعام في الصباح والمساء بنفسه، حتى يضمن عدم هروبهما.

أصبحت حياته محدودة بحدود الشقة التي سجنه فيها عمه، وأصبح عالمه الوحيد هو عالم جدته العجوز، تحكي له حكايات كثيرة، ويحكي لها عن عبد المنعم ونرجس وسوسنة وياسمين.

دائما ما يراوده حلم الانطلاق إلى أسرة عبد المنعم. جدته تراوغه مرة، وتمد له الأمل في الخروج مرة أخرى، أملا في أن ينتهي عطية من بناء البرج السكني، ويطلق سراحهما.

كلما اشتد به اليأس تأخذه جدته إلى نافذة ذات سياج حديدي، مطلة على الحارة. حيث تكشف أمامهما حركة الناس وأبواب البيوت. تحكي حكايات طويلة، عن كل أسرة في الحارة، وعن شخصياتها منذ قديم الأزل.

ثم تجلس معه في النافذة الخلفية، حيث أنها تطل على شارع واسع، مليء بمتاجر كثيرة، يشاهدون حركة المارة التي لا تهدأ إلا عند منتصف الليل، تحكي له عن أهل الشارع، تبتكر أحداثا لم تكن في تاريخ الأسر والشخصيات، حتى تجذبه، وتلهيه عن أمل الخروج من سجنه.

في بهو الشقة، كانت نافذة ثالثة، تطل على جزء فارغ من سطح المنزل، ملئ بمخلفات قديمة، تستخدمه "ثريا" منشرا للملابس.

في اليوم التالي سمع وائل بوقع أقدام تتسلل على درجات السلم. ليست وقع أقدام عطية، أو زوجته. كانت ضعيفة، تشير أن صاحبها ليس بالحجم الكبير. تنبه

وائل، وأسرع إلى النافذة المطلة على السطح. فإذا به حسام ابن عمه.

قبض وائل على السياج الحديدية بغضب شديد، تمنى لو أن في استطاعته الخروج الآن، حتى يفرغ كل ما يترسب في صدره من غضب. لكنه رأى شيئا آخر في وجه حسام. رأى السكينة والهدوء، وشيئا من الحزن يكتمه في صدره.

اقترب حسام من النافذة، ونادى على جدته:

– جدتي.. جدتي.

جاءت جدته من الداخل، وأطلت برأسها من خلف السياج بجوار وائل، وأجابت حسام:

– نعم يا حبيبي.

– هل تعرفين كم يساوي سبعة وعشرون على التسعة.

صمتت المرأة العجوز لحظة، ذهبت تفكر. لقد سنحت الفرصة الآن، لتذيب جبال الكراهية بين وائل وحسام، وتطوي مسافات بين طفلين، صنعها عطية بطمعه.

سألته:

– وماذا لو لم أعرف يا حسام؟.

ظهر على وجهه الحزن، لقد تذكر ضربات والده الموجعة.

ثم قال:

– سوف يضربني أبي، لأنني لم أكمل الواجب.

نظرت إلى وائل وهي تبتسم، وقالت:

– ماذا لو ساعدك أخوك وائل، وذاكر معك دروسك.

– وهل يعرف أن يحل مثل هذه المسألة الصعبة؟.

– نعم.. وائل يعرف كل شيء.

نظر إلى وائل، وعلى وجهه علامات الاسترحام، ثم اقترب بالكتاب إليه في خجل.

أذابت نظراته الخجلى شيئا من الجليد المترسب في أعماق وائل، وغلبته براءة الأطفال.

قال حسام:

– هل تعرف هذه المسألة؟

– نعم.. ثلاثة.

نظر حسام إليه في دهشة.. كيف له أن يعرف حل هذه المسألة الصعبة بالنسبة له بكل سهولة. اقترب إليه بالكتاب أكثر، وطلب منه أن يراجع على باقي الواجب.

نظر وائل في الكتاب، ومر على المسائل الحسابية سريعا، ثم هز رأسه وقال وهو يشير بسبابته على الصواب فيها والخطأ. فتعجب حسام أكثر، وظهر على وجهه السرور. لقد أنقذه وائل من عقاب والده.

ترك حسام مكانه، ونزل مسرعا إلى الدور الثاني، ثم عاد مرة أخرى. نظر في وجه وائل لحظة، ثم أخرج من جيبه عددا من أصابع الموز وقال:

– تفضل يا وائل.

تردد وائل لحظة، لكن جدته قالت:

– خذ من ابن عمك يا وائل.

ردد حسام كلمات جدته، وقال وهو يمد يده أكثر:

– خذها.. أنت ابن عمي.

مد وائل يده وأخذ أصابع الموز في توجس، فاستطرد حسام قائلا:

– لم يكن لي أصدقاء.. ماذا لو أصبحنا أصدقاء يا وائل؟.

في هذه اللحظة.. ذهبت بقايا ما كان مترسبا في صدر وائل من خوف وكراهية لحسام، ذهبت أحداث السنوات الماضية إلى لا شيء، وانفرجت أسارير وائل، ومد يده من خلال السياج الحديدي، فقبض عليها حسام بكل أخوة.

وفجأة ترك حسام يد صديقه، وأسرع على درجات السلم، عائدا إلى الدور الثاني، حين سمع قدوم والدته وهي تدخل من باب المنزل.

ومنذ هذا اليوم، وحسام يتحين الفرصة التي يخرج فيها والده، وتغفو والدته عن مراقبته، ثم يصعد إلى وائل، حاملا ما يستطيع حمله من فاكهة أو حلوى، يجلس على أريكة قديمة تحت النافذة، ويذاكر معه ما لا يعرفه، ويحكي له ويسمع منه.

كانت جدتهما تشاركهما الحوار، وتبتسم، ثم شكرت الله في نفسها، لأنها نجحت في توطيد العلاقة بينهما، بحكاياتها الكثيرة والمسلية. سأله وائل ذات مرة:

– ألم يكن لك أصدقاء يا حسام؟.

سحابة من الحزن ظهرت على وجه حسام، وقال:

– أبي لم يسمح لي بالخروج إلى الحارة، لألعب مع الأولاد، ويغضب إذا تحدثت مع أحد لم يعرفه. حتى في النادي، لم يعط لي الفرصة أن أصادق أحدا، ودائما يقول لي أنني مازلت صغيرا على الصداقة.

ابتسم وائل، وقال:

– لا يا صديقي.. الصداقة شيء جميل، أنا لي أصدقاء كثر، منعم صديقي ونرجس وسوسنة وياسمين، وهم أكبر مني بكثير.

لحظة صمت، ثم قال في نبرة حزن:

– لكن والدك طردهم من المستشفى.

لم يع حسام طيات صدر وائل، فقال مسرعا:

– أهؤلاء كل أصدقائك؟.

– لا.. عندي كثير.. مثل الدكتور باسم، وكل من في المركز، غير أصدقائي الأرانب.

تهلل وجه حسام، وسأله:

– الأرانب التي عندك فوق السطح؟!.

– نعم.. سوسنة ووائل وأولادهما كثير.

ابتسم حسام بشدة، وقال:

– نعم.. أعرفهم.. لقد ذهبت مع والدتي أمس، وقدمت لهم الطعام والشراب.

فغر وائل فمه، وسأله:

– مع رحمة!.

– لا.. رحمة لم تعد تأتي؟.

– لماذا؟.

– منعتها أمي من المجئ إلى الأرانب، لتتولى هي العناية بهم.

ذهب وائل في صمت، لكن حسام قال في فرحا:

– أتعرف يا صديقي.. أنني أحببهم جدا، ولعبت معهم على السطح.

قال وائل في نبرات حزينة:

– أرجوك يا صديقي.. اعتن بهم.

ثم قال في نفسه: "فهم آخر ما تبقى لي من الأصدقاء".

إنهم يذبحون الأصدقاء

كلما طال الليل.. تكسرت الآمال، وتسربت من القلوب لحظة بعد أخرى، حتى تتلاشى عن آخرها. هكذا كان وائل.. يتلاشى أمل الخروج من قلبه كل ليلة، كما يتلاشى أمل اللقاء بصديقه عبد المنعم وأسرته. فيتقوقع على أحزانه، لم يجد غير جدته وحسام، يقتلان فيه فراغا كبيرا.

في عصر اليوم الرابع، كان يجلس مع جدته في النافذة الخلفية. لمح رحمة بفستانها الأزرق الذي يحفظه، تسير مع والدتها تحت النافذة.

- رحمة.. صديقتي رحمة

وقفت رحمة ووالدتها، حائرتين، تنظران يمينا ويسارا. فأخرج وائل ذراعه من النافذة، وقال:

– أنا هنا يا رحمة.. فوق.. انظري.

رفعت رأسها:

– وائل.. وائل.. لماذا لم تعد تأتي يا وائل؟.

– لا أستطع الخروج.

سألته أم "حسن":

– لماذا يا حبيبي؟.

– عمي يحبسني هنا.

خنقت الدموع أم ياسين، لم تستطع مواصلة الحوار، فقالت رحمة:

– لقد طردتني أم حسام من المنزل، ولم أعد أرى أصدقاءنا الأرانب.

– أعرف يا صديقتي.. لكن أخبريني، أمي في المستشفى.. كيف حالها الآن.. وهل ترين صديقي منعم وسوسنة وياسمين؟.

– أمك بخير.. فهي تحت الأجهزة طول الوقت.

– وماذا عن صديقي عبد المنعم؟.

– كنا عندهم ليلة أمس.

– لماذا؟.

– لقد توفيت "طنط" أم "نرجس".

قال وائل في لهفة:

– متى؟.

– منذ يومين.

سكت وائل.. لقد خنقته الدموع هو الآخر، لم يستجب لنداءات رحمة ووالدتها.

ربتت جدته على صدره، وقالت:

– أصدقاؤك لم ينسوك يا وائل كما كنت تظن، ولكنها ظروف الوفاة.

رد وائل من خلال دموعه الغزيرة:

– وهذا أيضا ما يحزنني يا جدتي.

في الصباح.. استيقظ وائل من نومه. هناك شيء غريب في صدره يقلقه. حسام لم يأت ظهر اليوم كعادته، فازداد قلقا. وتساءل مع جدته:

– لماذا غاب حسام اليوم يا جدتي؟.

– العلم عند الله يا حبيبي.

عاد وائل يتكوم على فراشه مرة أخرى.. يحاول أن يجد سببا لهذا القلق الذي يساوره.

وعند العصر سمع حسام يهرول على درجات السلم، فقفز إلى النافذة. لقد اشتاق لرؤيته اليوم.

"وائل.. وائل"

في نبرات حسام لهفة غريب. أنفاسه المتلاحقة تلهف وجه وائل، تتسلل السياج الممقوت.

– أعرفت يا صديقي؟!.

– ماذا يا حسام؟.

– لقد ذبحوا الأرانب كلها يا وائل.

لم يصدق وائل ما سمعه.. لم يصدق أن أصدقاءه يذبحون، أو هناك مخلوق ما يستطيع ذبح الأرانب، فقال في لهفة:

– ماذا تقول؟

– أبي وأمي ذبحا الأرانب.

صرخة مدوية، اهتزت لها جدران المنزل. خشي حسام من بركان الغضب الذي رآه في وجهه، فنزل مسرعا، قبل أن يكتشف والداه أمر مجيئه. تاركا وائل في غيبوبة انتابته فجأة.

صرخت جدته.. صرخت بكل ما فيها من قوة. جاء عطية وخلفه زوجته، يتملكهما برود تام.

ثم ذهبت "أم حسام، وعادت بزجاجة عطر، وبللت يدها، سارت بها على أنف وائل وجبهته.. أفاق بعد تكرار المحاولة، ليجد ابتسامة ثلجية علقت بوجه عطية، فانقبض قلبه أكثر. لكن عطية سأل والدته:

– لماذا.. وماذا حدث؟.

لم تستطع والدته أن تقول له الحقيقة، خشية أن يعرف بأمر صعود حسام، فيناله عقاب شديد.

قالت في شيء من الزمجرة:

– أمر الله يا عطية.

هز رأسه، وانسحب دون أن يقول شيئا، تتبعه زوجته، تكتم ضحكة يضج بها صدرها.

وائل بالفراش يبكي، بجواره جدته، تحاول أن تواسيه بحكايات مفتعلة، لكنها لم تجد إلا وجها جامدا تجرى الدموع على وجنتيه، ثم جاء صوت رحمة من الشارع، ينادي نبرات حزينة:

"وائل.. وائل".

أسرعت جدته إلى النافذة:

– نعم يا رحمة.

– أين وائل يا جدتي؟.

– نائم.

– أبلغيه أنهم ذبحوا أصدقاءنا.

– عرفنا يا رحمة.. عودي غدا.. سوف يتحدث معك.

بعد ساعة، سمعت جدته حركة في السطح الواسع أمام الشقة، فأطلت من النافذة. فإذا بأم حسام، نشرت جلود الأرانب على مخلفات المنزل، لتجففها في الشمس، ثم تستخدمها مفارش لبعض "الفازات" والأنتيكات. حاولت أن تأمرها بعدم نشر الجلود هنا، لكن أم حسام رحلت دون أن تسمعها، فأغلقت المرأة العجوز النافذة، وتمنت أن لا يفتحها وائل، حتى لا يرى جلود أصدقائه.

عند المغرب، انتفض وائل في رقدته، وضع يده على صدره. هناك شيء آت مع وقع الأقدام القادمة على درجات السلم. وقع الأقدام هذه المرة غير مريح. حتى طريقة فتح الباب، فيها شيء مريب. تطلعت حواسه للقادم. فإذا هو عطية، يدخل بين يديه صينية العشاء، مغطاة بقطعة قماش بيضاء. لم يضعها على المنضدة التي في الصالة كعادته. دخل بها حجرة النوم، وعلى وجهه ابتسامته الكالحة. وضع الصينية على

الفراش، أمام وائل وجدته، وقال:

– أنا أتيت لأشكرك بنفسي يا وائل.

هكذا قال عطية.

نظر إليه وائل، ولم يقل شيئا.

فقال عطية وهو يكشف صينية العشاء.

– أشكرك على الأرانب الجميلة.. طعمها لذيذ حقا.

اتسعت عينا وائل، زلزال عنيف اجتاح أوصاله.. تصطك أسنانه في حركة غير إرادية، فأحدثت صوتا ينم عن بركان غضب يحاول كتمانه. لكن الغضب كان أقوي من كتمانه، فانفجر وائل، أخرج آهة حارة، ضرب فيها صينية العشاء بيده، طاحت في آخر الحجرة، وتبعثر كل ما عليها. وسط قهقهات عالية، لم تتجاوز حلقوم عطية. احتضنته جدته، وراحت تصرخ:

– ماذا تريد من كل هذا؟. اغرب يا عطية.. أغرب عليك غضبي إلى يوم الدين.

لم يبال عطية بغضب والدته، كما لم يبال بمشاعر وائل، ظل في قهقهاته العالية، وهو يتقدم نحو الباب، ويقول:

– غبي.. لماذا تريد الاحتفاظ بهم أحياء؟.

قالت والدته مرة أخرى:

– اغرب.. لقد كرهت البطن التي حملتك يا عطية.

وفي اليوم التالي.. ظل وائل واقفا خلف النافذة المطلة على السطح، يعزي نفسه بالنظر إلى جلود أصدقائه الأرانب، يتذكر كيف كان يقدم لهم الطعام هو وصديقته رحمة، وكيف كان يلاعبهم؟.

صراخ يشق السكون

سبحت طنطا في نسمات صيف معتدل. والشفق يلفظ أنفاسه الأخيرة. شق السماء أذان المغرب.

طرقت رحمة باب منزل عبد المنعم.. معها والدتها أم ياسين. رحبت بهما الدكتورة نرجس، واصطحبتهما إلى حجرة الجلوس، حتى ينتهي والدها من صلاة المغرب.

مازال الحزن يخيم على المنزل وأهله. جاءت البنات في ملابسهن السوداء، أحطن بأم ياسين ورحمة. شكرنها على زيارتها وعزائها لهن. ثم رحب بها عبد المنعم، وجلس قبالتها، وسألها عن حال عبير. قالت بنبرات الأسى:

– لم أتركها لحظة كما قلت لي.. مازالت في غيبوبتها.. الأطباء يطمئنونني، ويقولون أن الجلطة في طريقها إلى الذوبان، وأنها سوف تفيق خلال أيام.

– الحمد لله.. ربنا يتم شفاءها على خير.

سكتت أم ياسين، ثم قالت:

– لا أعرف.. هل ما سأقوله مناسب في هذا الوقت.. أم غير مناسب.. لكن قلبي يتقطع حقا.

انتبهت البنات، وتعلقن بوجهها، ينتظرن الأمر الذي جاءت من أجله.

مسحت أم ياسين دمعة حارة بطرف شالها الأسود، ثم قالت:

– وائل.

– ماذا به؟.

هكذا قالت البنات الثلاثة في لهفة.

– وائل مريض في سجن عمه، لم يستطع الخروج.

– ماذا.. وكيف عرفت؟.

قصت أم ياسين عن الحوار الذي دار بينها وبين وائل عبر النافذة الخلفية، وعن ذهاب رحمة إليه كل يوم، لكن جدته تبلغها أنه مريض.

سكت الجميع عجزا وحزنا على صديقهم. واتجهت الأنظار إلى عبد المنعم، يستلهمون منه طريقة يرون بها وائل. عبد المنعم أكثرهم حيرة وعجزا.

قالت سوسنة:

– لا بد من طريقة نرى بها وائل.

– نعم يا سوسنة.. لكن.. ما هي الطريقة برأيك؟.

سكتت سوسنة، كأنها ذهبت تفكر. قالت ياسمين:

– ليس هناك طريقة لرؤية وائل، غير الذهاب إلى النافذة الخلفية للمنزل، كما تفعل رحمة.

وافقتها الدكتورة نرجس الرأي، وقالت:

– هذه أفضل طريقة حقا.

قال عبد المنعم:

– عندي طريقة أفضل.

– ما هي.. قل ما هي؟

هكذا قالت البنات في لهفة.

قال عبد المنعم:

– الآن.. يجب التضحية بجزء قليل.

تعجب الجميع، وسألته ياسمين:

– التضحية.!. بأي شيء.. وكيف؟

– في المخزن عندنا كمية الكبيرة من القماش، وطبعا وائل له فيها النصف.

– نعم.

– سوف نظهر من القماش جزءا صغيرا على عطية، ليأتي مع وائل، ليستلم حقه الشرعي في الشراكة التي كانت بيننا وبين والدته.

– هل ستسلم عطية نصيب وائل، رغم علمك أنه لص.. ورغم أن عبير على قيد الحياة؟.

– سواء رضينا أم أبينا، هو الوصي على وائل، وحسابه عند الله، غير أننا سوف نعرض عليه جزءا صغيرا كما قلت، وليس القماش كله

سكت الجميع، أدرك عبد المنعم أنهن أيدن رأيه. قام إلى الهاتف القابع على منضدة في ركن الصالة، وطلب المحامي، وعرض عليه الأمر. تردد المحامي في أول الأمر، وقال من الأفضل أن نسلمه نصيبه عن طريق المحكمة. لكن عبد المنعم أبلغه بأن الهدف ليس تسليمه القماش، ولكن الهدف رؤية وائل، غير أن التسليم يكون باتفاق مكتوب، ويوقع عمه عليه بالاستلام.

اقتنع المحامي برأي عبد المنعم.

لحظات أخرى من الصمت، أخذتهم فيها الشفقة على وائل ووالدته. أرادت أم ياسين أن تبعدهم بعض الشيء عن هذا الجو الكئيب. قالت كأنها تتشفى:

– حقا.. الطيور على أشكالها تقع.

نظرت إليها دكتورة نرجس، وسألتها:

– ماذا تقصدين يا أم ياسين؟.

– أقصد الظالم الطماع، عطية وصاحبه.

سألها عبد المنعم:

– من صاحبه؟

– عطية اتفق مع مهندس على بناء البرج السكني كما تعلمون.

– نعم.. هذا أمر طبيعي.

– غير الطبيعي، أن المهندس الذي اتفق معه، هو أكبر المعماريين المشهورين في المدينة بانعدام الضمير، وبالغش في المواصفات المطلوبة للبناء، واتهم أكثر من مرة في قضايا مماثلة، ورغم ذلك عطية تعاقد معه للعمل في بناء البرج.

– من الطبيعي أن أصحاب الذمم الخربة تتفق مع بعضها، وعطية لم يجد من يساعده في طمعه إلا مثل هذا المهندس، رغبة في الثراء غير المشروع.

هزت أم ياسين رأسها في حسرة، ثم قالت:

– عطية توحش بشكل مخيف.

– ...

– باع الشقق قبل أن يبدأ في البناء، بعقود وبأسعار حددها هو بنفسه، ثم طلب من الناس سعرا أعلى، وهددهم بعدم التسليم.

تنهد عبد المنعم، وقال:

– الله مطلع على الأعمال والنيات يا أم ياسين.

انقطع حديث أم ياسين، عندما وقف المحامي بعربته أمام منزل عبد المنعم.

أصرت سوسنة وياسمين على الذهاب مع والدهما، وانتظرت أم ياسين ورحمة مع دكتورة نرجس في البيت، حتى يرون وائل حين يأتي مع عمه.

المسافة لم تكن بعيدة. سارت العربة في الشارع الطويل باتجاه المدينة، ثم انحرفت بهم يسارا، مرورا ببيت عبير، فتجسد حريق الحلم في أنفسهم. اغرورقت العيون بالدموع، عندما رأوا آثار الحريق. مسحوها سريعا استعدادا لرؤية وائل. انحرفت العربة يسارا مرة أخرى، دخلت في الحارة الثانية. الحارة ليست طويلة، بيت عطية مقابل باب الحارة.

وقفت العربة قبل المنزل بمسافة قليلة، ثم ترجلوا حتى وصلوا إلى منزل عطية.

تقدم عبد المنعم ودق الجرس. أطل حسام، فأبلغه عبد المنعم بأنهم ضيوف.

نزل عطية مسرعا، ظنا منه أنهم زبائن، يريدون سكنا في البرج الذي يقيمه، وفجأة.. تغيرت ملامحه.. تقلصت قسماته.. ظهرت عليه علامات التأفف، عندما جاءت نظراته في وجه عبد المنعم.

سكت برهة، فلاحقه المحامي قائلا:

– نحن ضيوف يا أستاذ عطية.

تنبه.. وقال مرتبكا:

– تفضلوا

تقدم بهم إلى الدور الثاني، وجلس الجميع في البهو الواسع.. لاحظ عطية عيون سوسنة وياسمين تجوبان حجرات المنزل، أدرك أنهما يتطلعان لرؤية وائل. ابتسامة فاترة ارتسمت على وجهه الكالح.

قال عبد المنعم في نفسه: "لقد أخطأت عبير حين وصفته بآدمي.. إنه شيطان في قالب بشري"

قال عطية بنبرات حادة بعض الشيء:

– تفضلوا.. ماذا تريدون؟.

قال عبد المنعم في هدوء:

– كل الخير يا أستاذ عطية.

– خير إن شاء الله.

خرجت من بين أسنان الغيظ.

قال عبد المنعم:

– أنت تعرف أنه كان بيننا وبين أم وائل شراكة.

– نعم.. وانتهت الشراكة.. ماذا بعد؟

– لا تتعجل.. هناك بعض المتعلقات يجب أن نصفيها.

تجلت آخر درجات القبح على وجه عطية، وقال مزمجرا:

– قلت لك انتهت الشراكة.. ولا أريد أن أعرف عن هذه المتعلقات.

ابتسم عبد المنعم، وقال في هدوء:

– لا تتعجل أستاذ عطية.

تنهيدة ضجر خرجت من صدره الضيق:

فقال عبد المنعم:

– عندي كمية من القماش، لم تصبها يد المجرم بالحريق

ضغط عبد المنعم على الجملة الأخيرة، حتى يعرف عطية بأن جرمه واضح للجميع.

قال عطية:

– وماذا بعد؟.

– وأتينا الآن لنعطي وائل نصيبه في القماش المتبقي.

تنهد عطية، وقال:

– حسنا.. سوف أرسل إليكم المحامي الخاص بي.

ابتسم عبد المنعم، وقال:

– الأمر لا يحتاج محامين، حضرتك تأتي ومعك وائل، ونقتسم القماش، وتأخذ ما يخصكم، وتوقع بالاستلام فقط.

وقف عطية.. يريد إنهاء الحوار، بل يبلغهم صراحة أنهم غير مرغوب في وجودهم.

خرجت سوسنة من صمتها، وسألته:

– أين وائل؟.

– ماذا تريدين من وائل؟.

قالت ياسمين:

– نريد رؤيته.

علا صوته مزمجرا:

– وائل ليس موجودا.. وتفضلوا بالانصراف.

علا صوت ياسمين وسوسنة، وحدث في البيت هرج.

انتبه وائل وهو راقد بالفراش، هذه الأصوات ليست غريبة على قلبه.

تحامل على نفسه، اقترب من الباب يسترق السمع، وخلفه جدته.

– وائل موجود.. وأنت تحبسه.. أليس في قلبك رحمة!.

هكذا قالت سوسنة.

عطية لم يقل غير كلمة واحدة: "اخرجوا من بيتي.. اخرجوا من بيتي".

أراد وائل أن يصرخ، ويقول: "أنا هنا". لكنه أدرك أن صوته الضعيف لم يخترق الباب والمسافة التي بينهم. أسرع وائل إلى النافذة المطلة على الحارة، فرآهم وهم يعودون إلى العربة.

شق صوته الضعيف صمت الحارة، وأشعل كل عاطفة كانت نائمة.

"سوسنة.. ياسمين.. منعم.. أنا هنا.. هل ستتركونني؟.

ردت عليه سوسنة من خلال بكائها بصرخات أشد: "وائل.. وائل"

وكذلك ياسمين: "وائل.. وائل".

فقال وائل: "ذبحوا أصدقائنا يا منعم.. ذبحوا وائل وسوسنة.. ألم تعرفوا شيئا عن أمي.. أخبروها أنني هنا".

اشتعلت الشفقة، أسرعت سوسنة وياسمين بالعودة إلى بيت عطية، لكن عبد المنعم أخذهم في صدره، منعهم من العودة، رغم أنه أكثر الناس شفقة بصديقه، وأكثرهم لهفة عليه.

قال المحامي:

- القانون ليس في صالحنا.

وهنا سبت ياسمين القوانين الوضعية التي لا تعترف بصلة القلوب.

دفعهم عبد المنعم داخل العربة، وصوت وائل يتلاشى من الأسماع شيئا فشيئا، وهو يردد "هل تتركونني.. هل يترك الصديق صديقه؟"

ولكنه لم ولن يتلاشى من قلب أصدقائه.. فظلوا يرددون "وائل.. وائل" من خلال دموع منهمرة.

قال عبد المنعم للمحامي:

- أرجوك يا أستاذ.. اذهب بنا إلى المستشفى.

في هذه اللحظة، قرر عبد المنعم أن يكون بجوار عبير، مهما كلفه الأمر.

هي مازالت تخضع تحت الأجهزة لإذابة الجلطة.. هكذا أبلغته ابنته الدكتورة نرجس.

إن ربك لبالمرصاد

في اليوم التالي.. شق الصراخ سكون الشارع. وضعت المرأة العجوز يدها على صدرها، أسرعت إلى النافذة. رأت "ثريا" تخرج من البيت مسرعة، وركبت عربة مع أحد أقارب زوجها عطية، معها ولدها حسام. رؤوس كثيرة تطل من النوافذ، والبعض خرج من باب بيته، يتساءلون عن سر هذا الصراخ.. ولماذا ذهبت "ثريا" وولدها في العربة؟.. لا أحد يعرف. شهقت المرأة العجوز وقالت: "يا ساتر يا رب".. وقفت حائرة بعض الوقت، قلبها ينبض بشدة، يبدو أن هناك شيء لم تتوقعه.

كذلك أهل الشارع، انغمسوا في تكهناتهم.

عادت إلى وائل، عسى أن تجد عنده ما يهدئ من قلقها. لكن وائل في عالم آخر، لقد امتنع عن الطعام منذ يومين، حزنا على أصدقائه الأرانب، واحتجاجا على سجنه، فعادت إلى النافذة مرة أخرى.

بعد قليل.. رأت المرأة العجوز الأستاذ نوفل في أول الشارع، يهرول نحو المنزل. ثم صعد إلى الدور الثالث، وفتح باب الشقة، وفي عينيه دموع.

شهقت المرأة العجوز بشدة هذه المرة، وسألته في لهفة:

– ماذا يا أستاذ نوفل؟

تغلب على دموعه بصعوبة، وقال:

– البقاء لله يا حاجة.

– في من؟.

– الأستاذ عطية.

قالت وهي تصرخ:

– ولدي.. ولدي.

همت بالخروج مسرعة، لكنها عادت إلى حجرة النوم، نظرت إلى وائل.. مازال

راقدا في فراشه، ينظر إليها بعينين واهنتين. حاولت أن تساعده للنهوض. لم تسعفه قوته، لقد تمكن الوهن منه.

نادت على الأستاذ نوفل. جاء مسرعا مرة أخرى، ساعدها في مساندة وائل إلى العربة. ثم انطلق بهما إلى المستشفى

أمام المستشفى.. عائلة عطية تملأ المكان بالصراخ والعويل ينتظرون خروج الجثة.

مصاب المرأة العجوز كان أكبر، ولذلك كان عويلها مدويا. مصاب في ولدها عطية، وآخر في حفيدها وائل المشرف على الموت. أسرع إليها عدد من الرجال، يريدون مساعدتها في النزول من العربة. أشارت إلى وائل. سرعان ما أخرجوا وائل من العربة، وهو مازال في حالة الإعياء الشديد.

في هذه اللحظة كانت سوسنة تمر بجوار العربة بصحبة والدها، في الطريق لزيارة عبير.

التفتت سوسنة إلى العربة، رأت وائل.. صرخت: "وائل". جرت عليه، ثم والدها عبد المنعم.

حمله عبد المنعم بين يديه.. حاول أحد الرجال استعادة وائل منه، لكن المرأة العجوز صرخت في الرجال بقوة:

– اتركوا وائل مع الأستاذ عبد المنعم.. اتركوه مع الرحمة والحب.. فهي أنقى من قرابتكم له.

أسرع عبد المنعم بوائل داخل المستشفى، وخلفه سوسنة تستجير بالأطباء.

أكثر من ساعة.. وعبد المنعم يقف بجوار وائل، ينظر إلى وجهه البرئ وهو في غيبوبته، يتحسس يده أحيانا، وأحيانا أخرى يمسح شعره الناعم. وكذلك سوسنة، تجلس بجواره من جهة اليمين، وياسمين عند رأسه. أما الدكتورة نرجس، كانت حائرة بينه وبين والدته عبير. تقف بجواره، تتفحص حالته، تراقب جهاز الضغط ودرجة الحرارة. ثم تسرع إلى الدور الثالث، حيث ترقد عبير، تراقب الأجهزة التي ترقد تحتها. يشرق وجهها بالتفاؤل، كلما تفحصت عبير، أو تفحصت وائل. كلاهما يتقدم

نحو الشفاء بشكل ملحوظ.

بعد العصر.. قشعريرة سرت في جسد وائل. فتح عينيه.. لاحقته كلمات الحمد والثناء على الله لسلامته. لم يصدق أن أصدقاءه حوله. حاول أن يغمض عينيه، ويفتحهما مرة أخرى، حتى يتأكد أن ما يراه حقيقة وليس وهما. علت سوسنة بصوتها الرفيع:

– صديقي وائل.

نظر إلى عبد المنعم، وقال:

– لماذا تركتني يا صديقي؟.

قالت ياسمين:

– لن نتركك أبدا بعد اليوم.. وسوف نأخذك معنا.

ظهرت علامات الفرح على وجه وائل، وقال:

– حقا يا منعم!.

– نعم.. بشرط أنا تأكل الآن.

هلل وائل بضعف، وقال:

– أين الطعام؟

وبينما هم كذلك، فإذا برحمة تدخل عليهم، وجهها يشرق بالبشرى. قالت في لهجة مسرعة:

– دكتورة نرجس.. يا دكتورة.. "طنط" أم وائل أفاقت من الغيبوبة، وسألت عن وائل.

هب الجميع.. في طريقهم إلى الدور الثالث. تزاحمت رحمة مع سوسنة وياسمين، أصبحت بالقرب من وائل، سارت بجواره، حتى دخلوا على والدته، وبجوارها أم ياسين. ارتمى عليها، فأوسعته قبلات وأحضانا، وسط دموع الفرح التي انسابت من الجميع.

قال وائل:

– سوف نعيد كل شيء يا أماه.

– نعم يا حبيبي.. سوف نكمل حلم والدك.. ونعيد المشغل من جديد، ونعيد متجر الملابس، ومتجر المفروشات.

فقالت رحمة بصوت هادئ:

– ومشروع الأرانب يا أستاذ وائل.

ضحك الجميع، ثم قال وائل:

– نعم يا رحمة.. ومشروع الأرانب.. وعندي لك أفضل من ذلك.

نظر الجميع إلى وائل، فقال:

– سوف أذاكر معك دروسك، لتعودي إلى التعليم مرة أخرى.

انتابها خجل البنات، وسط تهليل سوسنة وياسمين.

بعد ساعة، خرج الجميع من المستشفى، على أن تكمل عبير علاجها في المنزل، ثم يبدأون بناء الحلم من جديد. على باب المستشفى، مازال الصراخ والعويل، عائلة عطية ينتظرون الجثمان، سيخرج بعد قليل، مودعا الحياة. نظر وائل في أفراد عائلته، ثم عثر على حسام، يجلس في حجر جدته على الأرض، يبكي بشدة. أسرع إليه، وأخذه من حجر جدته، واحتضنه بقوة، ثم أخذه معه، في طريقهم إلى البيت. تعجبت والدته، فهمس في أذنها قائلا:

- الانتقام من ضعيف، نقيصة من نواقص الإنسانية.. والانتصار الحقيقي في الحياة، يبدأ بالتغلب على نوازع النفس البشرية.. هكذا تعلمت من صديقي منعم.

ثم سار يتأبط حسام، تحيطهما قلوب بيضاء: رحمة وسوسنة وياسمين، وخلفهم أم ياسين.

ابتسمت عبير، وغمرته بنظرات الإعجاب، ثم سارت بجوار عبد المنعم، في طريقهم إلى بناء الحلم من جديد.

الفهرس